Jabuti Award for Book of the Year (2016)
José Saramago Literary Prize (2017)
Anna Seghers Prize (2018)
Oceanos Prize (2016)

رواية
NOVEL

چوليان فوكس

ترجمة: سيد واصل

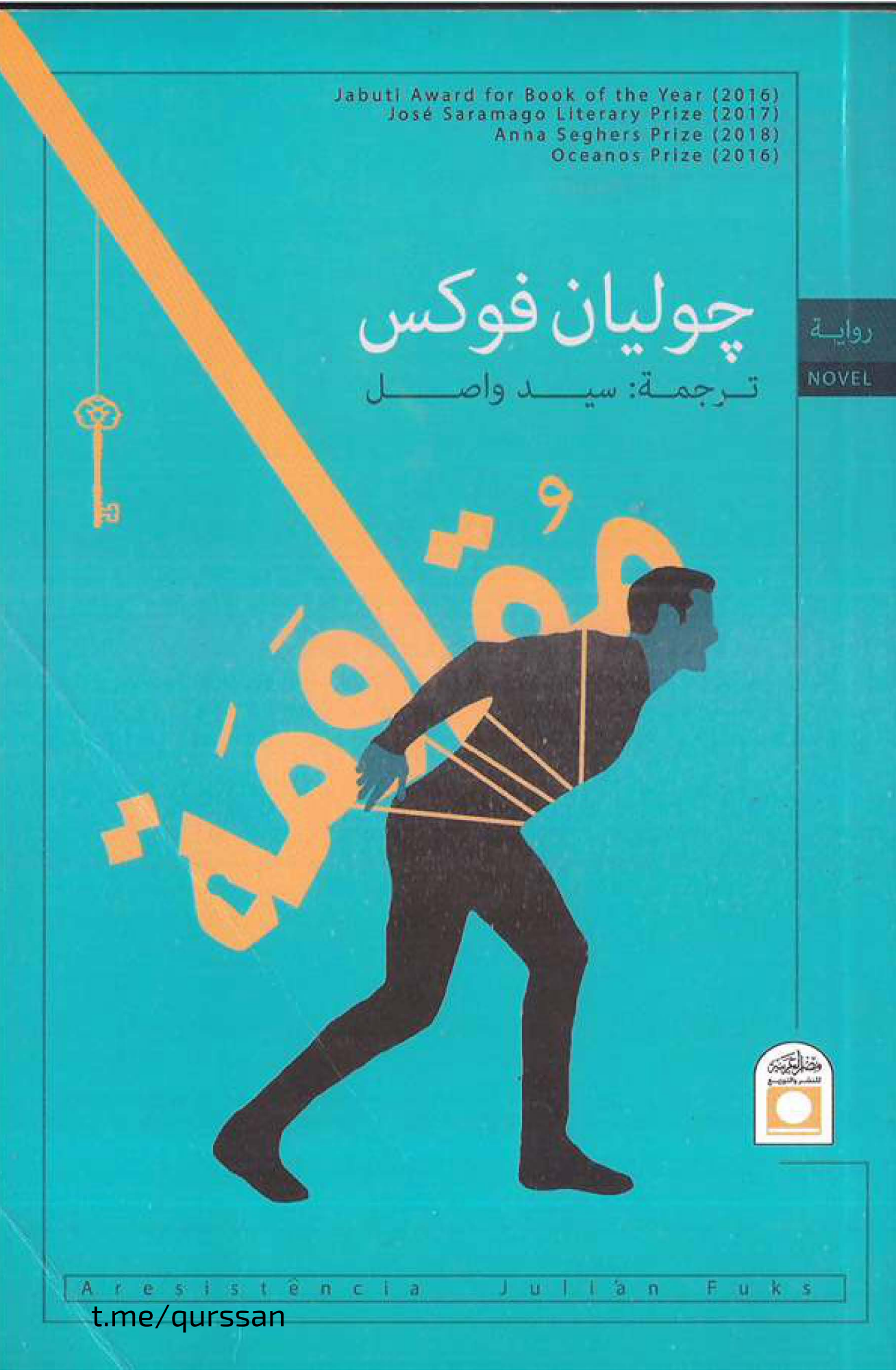

مُقاوَمة

A resistência Julián Fuks

t.me/qurssan

العنوان : مقاومة - رواية

تأليف : جوليان فوكس

ترجمة : سيد واصل

الطبعة : الأولى 2019

الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع

22 ب شارع الجمهورية - وسط البلد - عابدين - القاهرة

تليفون 23915978 02 2+

masrelarabia@hotmail.com

الإيداع : 2019/25864

I.S.B.N : 978-977-428-149-5

الغلاف : عبد الرحمن الصواف

جميع الحقوق محفوظة © JULAIN FUKS

بالتنسيق مع RCW Literary Agency – الناشر Companhia Das Letras

- Obra publicada com o apoio do Ministério da Cidadania do Brasil | Fundação Biblioteca Nacional em cooperação com o Ministério das Relações Exteriores.

- تم نشر هذه الترجمة بدعم من وزارة المواطنة والجنسية بالبرازيل ومؤسسة المكتبة الوطنية / بالتعاون مع وزارة الخارجية البرازيلية.

t.me/qurssan

جوليان فوكس

مقاومة

ترجمة: سيد واصل

مصر العربية للنشر والتوزيع

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إلى "إيمي"، أكثر من أخ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

"أعتقد أنَه لابُدَ من المقاومة"

كان ذلك هو شعاري

لكن اليوم، كثيرًا ما أتساءل

كيف أُجَسِد هذه الكلمة؟!

"إرنستو ساباتو"

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

إنّ أخي مُتَبَنّى، لكني لا أستطيع، ولا أريد القول بأنّه مُتَبَنّى. لو قلتُ ذلك، ولو أنني تَفَوّهتُ بهذه الجملة التي حرصتُ كثيرًا على كتمانها، فإنني أحصر أخي في فئةٍ مُحَدّدة من البشر، وسمة جوهرية، وهي أنّ أخي شيء، يحاول الكثيرون أن يروا فيه هذا الشيء، وهذا الشيء هو العلامات التي نُصِرّ على البحث عنها - رغمًا عنا - في ملامحه، وحركاته، وأفعاله. إنّ أخي مُتَبَنّى، لكنني لا أريد التأكيد على التّهمة التي تُثيرها هذه الكلمة، والتي تتحوّل إلى سمةٍ شخصية. لا أريد أن أُعَمّق جراحه، وحتى لو لم أُرد، فلا يمكنني القول بأن جراحه قد التأمَتْ.

يمكنني أن أستخدم الفعل في زمن الماضي، وأقول إن أخي كان مُتَبَنّى. وبهذه الطريقة أكون قد خَلّصته من دوام المضارع، ومن أبديته، لكنني لا أستطيع التغلّب على الغرابة التي تُسَبّبها الصياغة. لم يكن أخي شيئًا مختلفًا حتى تم تبنيه، وقد صار أخي

t.me/qurssan

منذ تلك اللحظة، أو بالأحرى، في اللحظة التي وُلدتُ فيها، بعد مرور بضع سنوات من التّبَنّي. ولو أنني قلتُ إن أخي كان مُتَبَنّى؛ فكأنني أُعلن - دون أسى - أنني فقدته، أو أنّه تم اختطافه، أو أنّه كان لي أخ حتى أتى شخصٌ ما، وأخذه بعيدًا.

الخيار المتبقي هو الأكثر وضوحًا، بين الخيارات الممكنة، والذي يُسَبّب أقل قدر من القلق، أو قُل أنّه يُخفي القلق بطريقةٍ أفضل، وهو أنّ أخي هو ابن بالتّبَنّي. فهناك براعة في مصطلح "ابن بالتّبَنّي "، تُسهم في قبوله على المستوى الاجتماعي. وهناك حُجّة تُبرئه - لبرهةٍ - من سوءات الماضي، ويبدو أنها تُحرّره من المعاني غير المرغوب فيها، وهي أني أقول إنه "ابن بالتّبَنّي"؛ فيميل الناس إلى قبوله بترحاب، ويخفون أي أسى، ويغضون الأبصار، كأنهم لا يشعرون بلهفةٍ لطرح المزيد من الأسئلة. ربما يشاطرونني القلق، وربما ينسون الأمر - بالفعل - مع أول جرعة ماء، أو مع أول لقمة يتناولونها. ويعتمل القلق بداخلي؛ وذلك لأنني أسمعُ الجملة بطريقةٍ جزئية، وهي أنّ أخي "ابن..."، ومن الصعب قبول أن الجملة لا تنتهي بالنسق المعتاد، وهو أن أخي "ابن أمي وأبي". إنني استهل الكلام بأن أخي هو "ابن"، ويرتسم على شفتي سؤال حائر، وهو: ابن من؟

t.me/qurssan

2

لا أريد أن أتخيل عنبرًا واسعًا، وباردًا، ومظلمًا، يزيد من سكونه خَرَسُ وليدٍ نحيف. لا أريد أن أتخيّل يدًا قوية تمسك بساقيه، واللطمات الفظة التي تُصيبه فَيُدَوّي صوتُ بكائه من الألم. ولا أريد أن أتخيّل حِدّة بكاء الصبي، ويأسه مع أول أنفاسه، وشوقه إلى حضنٍ يضمه، حضن لن يناله أبدًا. لا أريد أن أتخيّل ذراعان ممدودتان لأم تحتضر، ونحيب مكتوم يقترب مع وقع خطوات حذاء على الأرض، وهو يغادر ويأخذ معه الطفل، ويختفي الطفل، ويبقى العنبر باتساعه، وفراغه. لا أريد أن أتخيّل طفلاً كامرأةٍ محطمة. أُفَضّل أن أترك هذه المشاهد تتلاشى في الكوابيس التي لم يسمع بها أحد من قبل، نعم! الكوابيس التي تسكنني، أو التي كانت تعيش على سرير بجواري.

لا أعرفُ كيف أصفُ ولادةً سعيدةً. غرفة بيضاء، وملاءات بيضاء، وقُفّازات بيضاء تتلقى الوليد، وقُفّازات ليس لها لون

t.me/qurssan

يُميّزها؛ بلاستيكية، تخلو من المشاعر، لكنها عملية. ولم تُعلن الفرحة - بالتأكيد - في هذا الجو المعقّم. يتلقى طبيب التوليد الطفل بيديه الخاليتين من المشاعر، يفحصه: طفل كامل النمو، يتنفس، ولونه وردي، وحركة أطرافه جيدة، وضربات قلبه طبيعية. يجب ألا تراه الأم، أو بالأحرى، يجب ألا تراه السيدة التي وَلَدَته. ليس هناك ضرورة لوجود اضطرابات عاطفية؛ خاصةً في لحظةٍ حساسة، يتلاشى فيها ألم الولادة، بعد أن خَفّ حِملها، تاركًا هناك بعض الفراغ، وليس هناك فائدة من التردد. فلن يُفيد الطفل حضنٌ مؤقت، ومن الأفضل له أن يجد في أقرب فرصة والديه الحقيقيين؛ أن يجد ذراعين مفتوحتين، ومستعدتين لاستقباله، مشتاقتين له وعازمتين على احتضانه كما يجب.

ولأكن صريحًا مع نفسي، أُفَضّل ألا أترك نفسي لمشَاهد ذلك الميلاد تستولي عليّ. فعندما تقص حكاية ميلاد طفل فأنت تحكي قصة وجود مُفاجئ؛ قصة كائن يخرج إلى العالم، ولا يهتم أحد بتلك اللحظة أكثر من ذلك الكائن، ولا أحد يتعلق بتلك اللحظة أكثر من الطفل الذي يخرج للحياة. ولكي نُعطي لذلك الميلاد ما يستحق من حالة الفرح؛ ذلك الفرح الذي كنتُ أودّ أن يتلقاه، والذي يستحقه أخي مثلما يستحقه كل مولود. كان عليّ أن أستحضر ابتسامات الذين كانوا معه في تلك اللحظة، أولئك الذين اتخذوه ولدًا. لابُدّ أن ابتساماتهم كانت ابتسامات عريضة،

t.me/qurssan

وكانوا يشعرون باسترخاء أعصاب يُمَيِّز كل راحة تأتي بعد انتظار. لكن الأطفال لا يُولدون من أجل راحة الآخرين؛ بل إنهم يُولدون، وبمجرد ولادتهم يُطالبون براحتهم هُم. فلا يبكي الطفل حين يُولد من أجل أن يبتسم الآخرون، بل يبكي كي يحتضنوه، ويشعروه بالأمان، وكي نُسكت بالهدهدةِ جزعه الشديد، الذي يُؤَرّقه منذ بداية حياته. وكما أنني لا أريد أن أتخيّل طفلًا مثل امرأةٍ محطّمة، فكذلك لا أستطيع أن أتخيّله مُنقِذًا لأسرةٍ أخرى؛ الأسرة التي ستصير أسرتي، إنقاذ في غير محله، ما كان لهم أن يطلبوه منه على الإطلاق.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

3

إنّه مُتَبَنّى.. كان ذلك هو ما قُلتُه ذات مرةٍ لابنة عم لي كانت تُصِرّ على التأكيد على أننا مُختَلفان، هو وأنا؛ إذ إن شَعره داكن أكثر مِني، ومُجَعّد، وعيناه مُلوّنتان.. ولم يكن فيما قُلتُه لها سوء نية أو حقد عليه. كان عمري على ما أعتقد حوالي خمس سنوات - ولكن إذا كنتُ في معرض الدفاع عن نفسي الآن، فربما كنتُ مدفوعًا ببعض القسوة البريئة، التي ما زلتُ أحاول أن أخفيها. كنا في سيارة يقودها والدي، ولا شك أن والدتي لم تكن معنا: لأن أخي كان يجلس في المقعد الأمامي، لا أدري هل كان يُشَاركنا الحديث أم كان غارقًا في تفكيرٍ عميق.

وخَيّمَ الصمتُ على الفور. ربما نكزتني أختي في الخفاء، والتي أتخيلها وهي تجلس بجانبي. ربما كان الوخز مجرد إزعاج شعرت به عندما أدركت أنني قد أخطأت. كان وخزًا شديدًا شعرتُ به مرات عديدة دون ينكزني أحد. كان الصمت صارمًا إلى درجة أنني

t.me/qurssan

أذكره حتى يومنا هذا، من بين الكثير من لحظات الصمت التي عادةً ما تقع في طي النسيان. ولستُ أحاول إعفاء نفسي من الخطأ بالقول إنه في ذلك الوقت كانت الإرشادات التي تلقيناها غامضة ومبهمة. فأخي يعرف دائمًا أنه قد تم تبنيه، هذا ما قاله والداي، وهذا ما كان يُثير دهشتي ويدعوني للتساؤل، وما زال يُحَيّرني إلى الآن: كيف يُقَال شيء كهذا لطفل كان ينطق بالكاد أبسط الكلمات؟ بأي جفاء كانوا يلقنونه كلمات مثل "ماما، بابا، نونا، تَبَنّي"؟ كيف نُوَصّل له هذه الحقيقة وأهميتها بالجدية التي يتطلبها الموضوع دون أن نُثْقل كاهل الطفل بحمل لا أهمية له، ودون أن نُحَمّله ما لا طاقة له به؟

كان "وينيكوت" هو من يُملي علينا تلك الخطوات - وكنا نسير على "نظرية وينيكوت". وقد سمعتُ بعد سنوات - دون فهم - ذلك المصطلح ولكن مع ملاحظة نبرة الأسف، والصوت الحزين. كانت نظريته تدعونا أن نُعَرّفه وأن نعرف نحن وأن يعرف جميع سكان المنزل. كان العلم بذلك التّبَنّي شيئًا أساسيًّا. إلا أن الأمر قد انعكس بعد ذلك، فما كنا نستطيع قوله بكلمةٍ أصبح فائقًا للوصف، وصمتت الحقيقة كما لو كان لابُدّ لها من التلاشي. ومن الخطأ القول إن أخي هو الذي فَرَضَ على الجميع التزام الصمت الذي كان يُريحه أكثر، وأننا قبلنا الوضع بكل بساطة، وطيبة جمّة، وشيء من الجبن.

t.me/qurssan

أذكرُ أنني رأيتُ عينيّ أخي مغرورقتين بالدموع، لكنني لستُ واثقًا من أن هذا يمكن أن يكون محض خيال زاد في المرات الأولى التي بدأتُ فيها أجتر ذكرياتي ربما بفعل الندم. كان يجلس في المقعد الأمامي. وإذا بكى فلابُدّ وأنه أخفي نحيبه ودموعه بيديه، أو أنه أشاح بوجهه جهة النافذة، واستغرق بناظريه في مشاهدة المارين بجانبنا. المهم أنه لم يكن لينظر إليّ، ولم يكن ليلتفت إلى الوراء. وربما كانت تلك العينان الدامعتان هما عيناي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

4

ما أقوى الصمت عندما يتجاوز الإحساس بالألم، ويتجاوز الأحزان. كنتُ أرقب أخي لسنوات، وأتعجب من قدرته على التخلص بسهولة من الأفكار المزعجة، وتَدَخَله في المحادثات بعفوية، وقُدرته على تغيير المواضيع دون أن يلحظ أحد، والتَنَقّل بين الأفكار في لحظات ودون إخلال. أرقبُ وجهه عندما يُقَطّب للحظة أمام مصيبةٍ غامضة، أو حِيَال عبارةٍ مؤسفة قبل أن يتلفظ بها أحد، أو حِيَال اقتراح صغير يكاد يقترب مما يُزعجه، ثم تعود أساريره للانفراج، ويعود إلى اللامبالاة المعهودة وإلى حِيَادِه البارد. ما أكثر الحالات التي تدل على أنه يعرف بالفعل كيف ينسى، برغم أن كلمة النسيان ليست بالضبط هي الكلمة المناسبة - بل كلمة التجاهل هي الكلمة الدقيقة التي كان يُمكن لوالديّ أن يستخدماها هنا.. يُمكنني التنبؤ بذلك. وما أكثر ما كان أخي يقضي فترات طويلة - أيامًا أو أشهر، وربما سنوات - حبيسًا

t.me/qurssan

في غرفته دون السماح لنفسه، ودون الاعتراف لها، ودون أن يُكَدّر صفوه شيء من هذا، ودون أن يُفَكّر في كل ما لم أُرِد ولم أستطع أن أقوله له، وكل ما يجب عليّ قوله له. هلّا أراد هو أن يُصَارح نفسه بذلك؟

كنتُ أتساءل عن سر قوة الصمت عندما يتجاوز الألم، ويتجاوز الأحزان، بل ويتجاوز الشعور بالذنب؛ ولذا فإنني وصلتُ أخيرًا للجواب. فقد كان أخي قادرًا، ولفترةٍ طويلة، على النسيان. كنا في السيارة مرةً أخرى، وكانت الرحلة طويلة، وقد بلغ منا التعب، والملل، والحر، والضيق، مبلغه. ويبدو هنا مرةً أخرى أنني أحاولُ تبرير عدم إحساسي، وحماقتي. ولسببٍ ما كنتُ غاضبًا من أختي. لم أكن أريدُ أن أبقى بجانبها، ولا أن أسافر معها، لكنني كنتُ مضطرًا لذلك، فغضبتُ: أنا لستُ أخاكِ. وما إن قلتها حتى ثارت: لا يمكنك قول هذا، أنت أخي، ليس لديك لباقة، أنت أخي وستظل أخي إلى الأبد. وأُكَرّر أنا بإصرار: أنا لا أريد، أنتِ لستِ أختي، انتهى كل شيء، لقد عقدت العزم. فَتَوجَّهَتْ بالحديث لأبي، الذي وافقها الرأي وهو يُخفي ابتسامته، ووافقتها أمي الرأي وهي تضحك أيضًا، ورأت في عنادي طُرفةً سخيفة. لا يوجد ما يستحق في تلك اللحظة: ولا يهمني، فليغضبوا جميعًا، أنا لستُ شقيقها وانتهى الأمر.

t.me/qurssan

وصارت تلك الحكاية من كلاسيكيات العائلة، تتكرر أوقات العشاء حتى وإن كان جميع الحضور قد سمعوها من قبل، كمثالٍ عام على شجار الأطفال، أو كدليل على عنادي المفرط. وهي تحكي دائمًا بطريقة فكاهية يُضفيها عليها والديّ اللذان كانا يجلسان في المقدمة. وكذلك الاثنان اللذان كانا في الخلف، أنا وأختي، نتذكرها بطريقةٍ كوميدية؛ بل إننا نتخذها رمزًا لقوة الشراكة التي استطعنا تكوينها فيما بيننا.

لكننا كنا خمسة في السيارة. لم يُعَلّق أخي على هذا الموضوع، وما زال حتى اليوم لا يتكلم عنه، مُفَضّلًا الصمت والجلوس عند ركن المائدة، يبتلع بقية طعامه، ثم ينسحب كل مرة أسرع من سابقتها.

كنتُ أجلس في الوسط بينها وبينه، ولابُدّ أنني أعطيته ظهري أثناء الشجار وأنا أنبري للدفاع عن موقفي المستحيل. لا أعرف كيف بَدَا له أمر عنادي، وإذا ما كان قد سَرّه أن يسمعني وأنا أمتهن علاقة الدم، أم قد آلمه أن يعرف أنني لا أكترث للعلاقات الأخوية. لم أكن أجادل في كونه أخي أم لا، فلم يخطر ببالي أن أُعَلّق عن علاقتنا. لكني أتساءل عما إذا كان وجه الصبي سيظل عبوسًا وهو مُنكّس الرأس، مكسور العينين - رغم كل شيء.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

5

أتجولُ في شوارع بوينس آيرس، أشاهد وجوه البشر. كتبتُ كتابًا كاملاً عن تجربة المشي عبر شوارع بوينس آيرس وملاحظة وجوه الناس. أردتُ أن أستخدمهم كمرآة، وأن يتجاوبوا معي في كل ناصية، وأن أجد في نفسي شخصًا أرجنتينيًا بما أمتلك من قدرةٍ على التموبه، حتى أتمكن في نهاية الأمر من التَنَزّه بين أُناس مثلي. لم أُفكّر أبدًا كيف سيكون التَنَزّه في شوارع بوينس آيرس بالنسبة لأخي. وما الآلام غير المؤكدة التي ستسري في عموده الفقري مع كل أثر يعرفه، مع كل إيماءةٍ معتادة، ومع كل نظرةٍ فاحصة، ومع كل شخص مألوف له. يا له من شكٍ عظيم - أو تَوَقّع قاس - أن يظهر في يوم من الأيام أمامه وجه كالمرآة، وأن يظهر أمامه بالفعل واحد مثله، وأن يُنسخ من هذا الشخص أشخاص آخرون مثله.

t.me/qurssan

فهمتُ فجأةً، أو أعتقد أنني فهمتُ، لماذا توقف أخي عن زيارة هذه المدينة التي لم نستطع أبدًا هجرها. لقد طُرِدَ والديّ من بوينس آيرس وهو لم يبلغ بعد شهره السادس. كنا نشعر جميعًا بأننا منبوذون من المدينة طالما لم يُسمح لنا بالعودة - برغم أن بعضنا، أختي وأنا، لم تمس أقدامنا الصغيرة أرصفة شوارعها.

هل يمكن للمنفَى أن يُوَرّث؟ هل سيعاني جيلنا الاغتراب مثل والدينا؟ هل يجب أن نعتبر أنفسنا مواطنين أرجنتينيين محرومين من موطنهم؟ وهل يصلح الاضطهاد السياسي أيضًا للتوريث؟ بالنسبة لأخي، لم تشغله هذه الأسئلة. لقد استقل عن والديه ليكون أرجنتينيًا، ليكون منفيًا، وليُحرم من موطنه. ربما كان هذا شيئًا نحسده عليه، ألا وهو استقلال هُويته، فلم يكن عليه أن يقاتل بشدة من أجل إثبات هُويته الأرجنتينية. فقد وُلِدَ هناك، وكان أرجنتينيًا أكثر منا، وسيبقى كذلك دائمًا، بغض النظر عما يعنيه ذلك. لذلك اندهشنا بعد سنوات من عزوفه عن صحبتنا لزيارة المدينة باستمرار، ولفتراتٍ طويلةٍ، عندما كنا نحاول استعادة ذلك الشيء الذي حُرِمْنَا منه بطريقةٍ غير مباشرة.

أمشي في شوارع بوينس آيرس وأتوقف عند ميدان الكونجرس، أمام مقر "أمهات ميدان مايو". أتردد للحظةٍ عند الباب، ولا أرغب في الدخول. زرتُ المكان من قبل بغرض السياحة أو الفضول، وتجوّلتُ بين كل أرفف المكتبة، وتناولتُ القهوة في

t.me/qurssan

بهوها، ونهلتُ من قصصها ومجلداتها وكلماتها الحكيمة. الآن أجدني عازفًا عن الدخول، وأجدني وأنا أقف عند الباب لا أريد الوقوف عنده. وأنني أقف عنده لأني أود أن يكون أخي في مكاني هذا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

6

ماذا كنا نفعل في الليالي التي لا حصر لها والتي اقتسمنا فيها الغرفة؟ من الذي كان ينام قبل الآخر، تاركًا الآخر للصمت والظلام الموحش، للخوف من الأشباح، ومن الحفيف؟ ما أكثر الخيالات الخاطئة التي كانت تعتري من يبقى مستيقظًا، والأطياف الصبيانية التي تستولي عليه بينما كان الآخر يغط في نوم عميق، غير مبالٍ برفيقه، دون رحمة؟ ومن الذي كان يسأل الآخر إذا كان قد نام بالفعل، بصوتٍ مرتعش، فقط لملء الفراغ الغامض الذي يفصلهما؟ إنها محض أسئلة خادعة وعاطفية أكثر مما يلزم للحفاظ على الحقيقة. فإذا اخترتُ سرد الحكاية من زاوية الرعب الذي يحدث ليلًا؛ فإني أجد نفسي وسط الأحزان، وأصنعُ من نفسي بطلًا للرواية، وأصفُ أخي بالقسوة ظُلمًا. كنتُ أنا الذي يكره النوم بعد انطفاء الأنوار، وكنتُ أستيقظ خائفًا في منتصف الليل، وأعبر الممر المظلم، وأنطوي في

t.me/qurssan

سرير والدايّ في بعض الأحيان، في الصباح الباكر. وكانت أختي أيضًا تأوي إلى سرير والديّ الفسيح، فنواصل النوم، جماعةً، متزاحمين؛ أربعة أخماس الأسرة في أمتار مربعة قليلة جدًا. أما أخي فقد كان معزولاً، في فراشه الخاص، ولابُدّ أنه كان لا يخشى الصمت الذي كان أعمق، أو على الأقل الوحدة التي كانت تهز كيانه.

ما كان لهذه القصة أن تكون كذلك لو كنت أتذكرها. عشتُ مع أخي مدة ثماني سنوات في الغرفة نفسها، أو في غرفتين متلاصقتين، ولا أستطيع أن أتذكر كيف كنا نتحاور؛ هل كنا نستمتع بوقتنا، هل لعبنا لعبةً مشتركةً أم هل حدثت بيننا مشادات بسبب فارق السن، هل عَلّمني شقاوة الأطفال دون أن أشتكي منه. ربما لم يفعل، ربما حافظنا على مسافةٍ تفصلنا، وربما خاف أحدنا من الآخر وشعرنا بالجفاء الذي يلازمنا في بعض الأحيان حتى اليوم.

أَتَذكّرُ جغرافيا الغُرف جيدًا، وموضع الأسِرّة، والخزانة، والمكتب بجوار النافذة التي كنا نُحَلّق من خلالها فوق المدينة الهائلة، سواء أكانت مدينة ساو باولو أم بوينس آيرس. أتَذكّرُ الملصقات المفعمة بالحيوية التي كان يُعَلّقها أخي على الجدران والتي ربما قَصَدَ منها أن أُشَاركه حماسه ذاك. أَتَذكّرُ بعض الألعاب الخاصة بي، وقطع البلاستيك الجوفاء التي طالما فتنتني، والدّمَى التي

t.me/qurssan

كنت ألفها في طبقاتٍ متراصةٍ من القماش طوال الصباح، وطوال المساء، دون كلل حتى يعود. كان الخيالُ خصبًا في تلك الفترة. ذلك الخيال الذي تَخلَى عني اليوم. فلا أستطيع تَذَكّر ما كان عليه الحال في دقيقة أو عشرة دقائق أو ساعة بجانبه، ولا أستطيع حتى تأليف ذلك. كيف مرت ثماني سنوات على تلك الحال، هذا سؤال لا يمكنني الإجابة عنه؛ بل هو فكرة عن الحقيقةِ أتجنبُ الخوض فيها هنا.

أعلمُ أنه كان يحميني، ليس لأن والدتي كانت تُصِرّ على التباهي بذلك، كي تؤكد على مدى حُبه لي، وأنها كانت تدفعني سِرًا كي أتجرأ وأطرق باب غرفته. لكني أعلمُ أنه كان يحميني لأن حركاته المعتادة لم تُفَارِق ذاكرتي: كان يضع يده على قفاي، وكان يضغط بإصبعيه السبابة والإبهام، بالتناوب، برفقٍ، فقط ليشير إلى اتجاه الخطوة التالية. هكذا كان يُوَجّهني ونحن نسير جنبًا إلى جنب من خلال أي حشد قد يُحيط بنا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

7

هذه ليست قصة، إنّه التاريخ. وبرغم أنّه تاريخ فإنّ كل ما لديّ هو الذكرى، وبعض الأفكار العابرة عن تلك الأيام البعيدة، وانطباعات سابقة على الوعي وعلى اللغة، وشذرات بائسة أُصِرّ على صبها في قوالب الكلمات. ليس ما أشعر به هنا قلق مجرد، بالرغم من أني أكتفي دومًا بالمجردات، فقد سعيتُ بحثًا عن أخي في القليل الذي كتبته حتى الآن ولم أجده في أي مكان. قد تنطبق فكرة ما عليه، أو وصف ما بالصدفة أو الإيحاء نثرتها في بعض الفقرات المعوجّة وطَعّمتُها بقليلٍ من البيانات الصحيحة. لا شيء أكثر من ذلك. ولا تستنتجوا من هذه الملاحظة البسيطة، على الأقل في الوقت الحالي، أنني ساذج: أعلمُ جيدًا أنه لا يوجد كتاب يمكن أن يُمعن النظر أبدًا في إنسان، ولا يمكن أن يرسم بالحبر على ورقةٍ كيانًا من لحم ودم. لكن ما أقوله هنا هو شيء

t.me/qurssan

أكثر خطورة، ولا أعني هنا الشكليات الأدبية: لقد تحدثتُ عن الخوف من فقداني أخي وأشعرُ أنني أفقده مع كل جملةٍ أكتبها.

أشعرُ بالارتباك لحظةً، وأنسى أن الأحداث كذلك تسبق الكلمات، وأن محاولة سبر أغوارها تنطوي دائمًا على مغالطاتٍ جديدة. وبما إنني أبدأ بالنص، فإني أنطلق من هذه الشقة بحثًا عن أثر لأخي وعن شيء يساعدني على استعادة حقيقته. أنا لستُ في بيته الآن، ذلك البيت الذي يمتلكه والداي حيث أتخيله حبيسًا في غرفته التي لا أستطيع طرق بابها. آلاف الكيلومترات تفصلنا؛ بل يفصلنا عن بعض بلد بأكمله، ولكني ورثتُ عادةً غريبةً عن أمي، ألا وهي ترك أشياء تُبقينا على صلةٍ بمنازل الأُسرة. وشقة بوينس آيرس تلك تُعَدّ مهجورةً منذ وفاة جدي وجدتي؛ هي استراحة فقط، يمر عليها أفراد الأُسرة المتباعدون المشتتون الذين هم في عجلة من أمرهم، المنسيون من أقاربهم الآخرين. أجد ألبوم صور مُلْقًى على الرف، متروكًا في زاويةٍ يبدو فيها كأنه وُجِدَ فيها مصادفةً. يجب أن أُقَلّب صفحاتٍ قليلةٍ حتى أعثر أخيرًا على صورةٍ لأخي، وأشعر في النهاية بالمفاجأة التي كنتُ أتوقعها بالفعل.

لا تقول الصورةُ ما أريد منها أن تقوله، فهي غير مُعَبّرة. وهي صورة لوجهه الناعم فقط في وسط شرفةٍ ظليلة، تتأملني عيناه من خلال عدسة المصوّر: تلك العينان الملونتان، وهذا الشعر

t.me/qurssan

الناعم أكثر مما تَخيّلته - ربما حسدته على جمالِه الطفولي. كان رأسه يميل جانبًا كما لو كان يستفسر عن شيءٍ ما، ولكني أعلم أنني لا أستطيع معرفة هذا الشيء. كانت شفتاه المفتوحتان صامتةً أيضًا، لكني أردتُ أن أُحَدّق فيهما حتى أتأكد من الظلم الذي أُسَبّبه له، من الظلم الذي أُمارسه على أخي في هذه الملاحقة الفظة. لا أستطيع أن أجعل من هذا الولد - ذلك الصبي الذي صار رجلًا اليوم - شخصيةً هشةً. لا يمكنني أن أتسبب في أي ألم غير معقول له يمكن أن يصل إلى حساسيه مفرطة تُثير الشفقة، وتُعَرّضه لقلقٍ شديد. وأنا لا أستطيع، قبل كل شيء، أن أجعل من أخي شيئًا صامتًا، يفتقر إلى وسيلةٍ للدفاع عن نفسه، وللاعتراف - أو أن يصمت عندما يستدعي الوضع ذلك. لماذا لا أستطيع أن أُعطيه الكلمة، وأن أنسب له في هذه الرواية أي جملة صغيرة؟ هل سأكون بهذا الكتاب كمن يسرق حياته، كمن يسرق صورته، وكمن يسرق منه الصمت والحديث وينسبها جميعًا لنفسه؟

لا أستطيع تحديد ما إذا كانت هذه قصة أم لا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

8

بين ثلاثة أطفال، يكفي أن يجتمع أطفال ثلاثة حتى يُخلَقُ عالم مليء بالمؤامرات والاستثناءات والتحالفات. أذكرُ طُرفةً لا أعرف ما إذا كنتُ أستدعيها من ركنٍ بعيد في الذاكرة أو أخترعها الآن. وأُوَزّع الأدوار كما لو كنتُ أنا القائد. وأُغير بالكلمات صفة التقاعس التي كانت أصيلةً في شخصيتي. أرى أو أتخيّل أخي وهو يستدعينا في هدوء، وأصبعه متعامد على شفتيه، يريدنا أن نجمع كل الوسائد والمخدات والمراتب التي يُمَكِننا حملها، ويريد منا أن نُكَدّس كل ذلك في الردهة، ونقسم بذلك الشقة إلى نصفين. ويريد منا أن نبني معًا متراسًا كبيرًا، ولم نكن نعرف حتى الآن، ولا نشك ، في أن الحاجز الكبير سوف يُفَرّقنا أيضًا.

كانت أوقاتًا ممتعة تلك التي قضيناها في رمي أنفسنا على هذا الحاجز الرخو، في محاولة للقفز من فوقه بطريقةٍ بهلوانية، ملتزمين فقط بالاندفاع السريع، غير مُقَدّرين عاقبة ارتطام

t.me/qurssan

أجسامنا. كنا أشقاء نلهو، وبين الأشقاء، كان من السهل علينا عدم تقدير المسؤولية، وتَخَيّل اتّهام غير مُحْتَمل من الكبار لنا، كأن يلومونا بسبب المخاطر التي يمكن أن نواجهها بأفعالنا مثلاً. كانت تلك المخاطر مُذْهِلة في قفزات أخي، وكثيراً ما كنا نبتعد أنا وأختي لمشاهدته ونحن مشدوهين من براعته، ومعجبين بشجاعته. سيقول البعض إن هذه كانت طريقته في صد العدوان، وإن إلقاءه بنفسه في الفراغ كان لكي يهزم الحزن والعجز - الحزن الذي انعكس في أعيننا وتَبَدّد ببساطة عند مراقبته وهو يقفز بمهارة. لكن يبدو أن أيا من ذلك لم يعكر صفو تلك الأوقات، ولم يقض على الابتسامة التي كانت غير مألوفة على وجهه. فسرعان ما تتلاشى الابتسامة، عندما توشك الطرفة على الانتهاء. كنا أخوة، وبين الأخوة سرعان ما تنتهي التحالفات، وتتلاشى أوقات الصفاء، وكل ملاطفة تنتهي بشجار لا مفر منه وربما تكون بداية الشجار كلمةً هادئة. أرى نفسي بجانب أخي متحالفيْن على جانب واحد من الحاجز، وفجأة ترتفع الوسائد لأعلى، ثم تبدأ المعركة. كانت أختي هي العدو الذي يجب كتم أنفاسه، واستسلمت أختي بعد هجوم مضاد، وسرعان ما انحنت للعاصفة، واستلقت على وجهها وأخذت تحمي قفاها بساعديها. هل رأيتُ جسم أختي المنكمش مثل صورةٍ ظليةٍ مرسومةٍ على الأرض أم هي صورة من وحي خيالي؟ هل كنتُ أضم لكماتي

t.me/qurssan

الضعيفة للكمات أخي أم كنتُ أُقَاومه، وأكسر عهدي معه، هل كنتُ شقيقًا لأخي حقًا وارتكبتُ معه ذلك الجُرم؟

وفي صمتٍ، أخذنا ننتظر تلك الليلة عودة أختنا. كنا نجلس على مائدة المطبخ عند الباب. أردنا أن نكون هناك عند دخولها. وعندما وصلتْ، كانت متجهمةً، وما زالت تنتحب، وكان وجه أبي عبوسًا. فلن تعود السّنّة الأمامية المكسورة لما كانت عليه أبدًا، قالت ذلك طبيبة الأسنان بنفسها. هي الآن بنصف سِنّة والنصف الآخر من الراتنج، ولن يكون الراتنج بلون الأسنان نفسها أبدًا. لا أذكر كيف كان رد فعلنا، أنا وأخي؛ هل استطعنا إظهار شيء من الضيق بأعيننا، هل أبدينا أي تعاطف أو شفقة. أعتقد أنني أردتُ النوم في غرفتها، تلك الليلة فقط، ولكني شعرتُ بالخجل ولم أتكلم.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

9

أجلسُ على مائدةِ العشاء، رغم أنني وحدي. وأشعر وأنا جالس إلى المائدة، غير جائع، دون عشاء؛ أنني بصحبة ألوان من الصمت. أشعرُ أن كل مقعدٍ يُنَادي صاحبه. الساعة تشير إلى التاسعة ليلًا في بوينس آيرس، التاسعة مساءً في ساو باولو. في غرفةٍ أخرى، في بلدٍ آخر لابُدّ أن والديّ يجلسان على المائدة، وقد حَرِصَا على تنظيف ما تبقى في الأطباق جيدًا. لا يوجد موضوع جديد للمناقشة، ولا توجد رغبة لدى أيهما للفضفضة؛ كل منهما يرسم دوائر في فنجانه. أتكئ بذراعيّ على سطح مُقفر، لاحظتُ أنني أرسم أشكالًا بطرف إصبعي، أسيرُ على نتوءٍ من الخشب، لكنه لا يرسمُ دائرةً، كانت حركة إصبعي تشبه البندول. في هذا الوقت لابُدّ أن أخي قد عاد لغرفته، هذا كل ما يُمكّنني تَخيّله. لقد ابتلع قدر استطاعته شيئًا مما قُدّمَ له، ورد بكلماته

t.me/qurssan

المقتضبة عليهما كالعادة. نهض وغادر دون صخب، ولا ينطق بحرف طالما لم يَدْعُه أحدهما للكلام.

لا أعرف في أي مكان يمكن أن يكون جالسًا. فلا أدري أين يجلسون عندما لا أكون هناك. كان أبي دائمًا على رأس المائدة، والدتي على يمينه، ولكن أمامها، وعلى يسار أبي، في المكان الذي اقتضت العادة القديمة أن تضع الابن البكر للأسرة، لم يستقر الحال على واحد منا لشغل هذا الكرسي. لسنوات كان أخي يقبل هذا المنصب كوضع طبيعي، خاضعًا بذلك لقوانين لا تقبل الشك ولا يحتاج أحد للكشف عنها. كنتُ أتقاسم أنا وأختي الكراسي الأخرى، خاضعين لمنطق معين - شيء أبعد من قاعدة التمييز بين الجنسين التي كان الآخرون يمارسونها بالفعل، والتي أستطيع أن أتفهمها؛ كانت تجلس إلى جوار أمي، وأنا إلى جوار أبي. وبعد مرور السنوات، كان يتأخر في غرفته، ويتجاهل النداءات المُلِحّة منا والتي كنا نتناوب فيها الصراخ؛ نداءات تزداد في شدتها حتى تنتهي بتعكير صفوه. لم نتمكن حتى من سماع صوته عندما يستسلم أخيرًا لتناول العشاء. كانت عيناه حينئذٍ عبارة عن ستارة من الجفون الحزينة، ولكن تأمله كان واسعًا، وكان دَوّي صمته مسموعًا بحيث بَدَا وكأنه يشغل الأجواء بأكملها ويُجبرنا أيضًا على السكوت. ولكي نتجنب هذه المعركة اليومية الصغيرة كنا نجلس في كرسيه أنا أو أختي؛ من

t.me/qurssan

يشعر منا قبل الآخر بالانزعاج من خلو المكان الذي يفصلنا عن الوالد، أو من يجرؤ على كسر التقاليد قبل الآخر. في السنوات التالية، لم يعد الابن البكر هو أول من جاء إلى العالم من البنين، ولكن من سبق إلى المائدة أولاً وتجرأ على الاستقرار في كُرسيه المعلوم.

غادر قبل تناول الحلوى، وأعتقد أنه يغادر دائمًا قبل تناولها. وهنا لا أقصدُ الثمارَ القليلة المعتادة والتي لم نكن نمل من تناولها؛ أي نوع من فواكه الأرجنتين نجدها في ساو باولو، أو قطع الشوكولاتة المحددة التي كانت تكبر كلما نَمَتْ أجسامنا. لكني أقصد وقت تناول الحلوى والفاكهة كما يُفهم من الكلمة في اللغة الإسبانية، وهو الوقت الذي تقضيه الأسرة على المائدة بعد إخماد الجوع، وقت لاجترار الماضي القريب، ومناسبة لمناقشة أدق تفاصيل الحياة اليومية. لماذا كل هذا التَعَلّق بالماضي، ولماذا نجتر الأيام الخوالي في حكاياتٍ دون معنى؟ كان هذا هو السؤال الذي لم ينطق به أحد، واحدًا من أسئلة عديدة كان ينقصنا النطق بها. الليلة أعتقد أنني فهمتُ لماذا لم يجد والديّ إجابةً أبدًا. إذا كنتُ أجلس على المائدة في الساعة التاسعة، دون عشاء ولا جوع. وإذا كانت وحدتي الليلة تفوق وجود هذه المقاعد الأربعة الشاغرة، فهذا لأنني أتمنى أن أسمع، مرةً أخرى، هذه القصص.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

10

من المفترض أن تبدأ القصة في ألمانيا، لكن إذا كانت الأسرة يهودية، وحتى لو لم تكن كذلك، وإذا كانت الأسرة موجودة منذ زمن لا يمكن تصوره شأن أي عائلة؛ فجميعها مشتق من نفس الجد الأوحد منذ ذلك الزمن السحيق. من الواضح أن هذه البداية تم تحديدها بشكل اعتباطي، ومن الممكن أن تقع في أي وقتٍ من عمر الزمان، وفي أي مكان قديم مأهول بالبشر. من المفترض أن تبدأ القصة في ألمانيا لأن اسم الأسرة جاء من هناك، ولأنه في علم الأنساب الذي لا يزال أسطوريًا، كان أحد أجدادنا مؤلف علم النبات - واستحق بذلك زهرةً ولونًا يُشيران إليه؛ زهرةً و لونًا ورثناهما عنه أيضًا. ولكن هذه التفاصيل الجانبية. لا صلة لها بالموضوع. بدأت القصة الحقيقية لهذا الجزء من العائلة بعد ذلك بكثير، مع أولئك الذين تَوجّهوا إلى رومانيا واشتروا أراضي في "ترانسيلفانيا" وكَيّفوا أسماءهم

t.me/qurssan

وطريقة كتابتها مع اللغة الجديدة. وفي قريةٍ ما غير معروفة، وُلِدَ ذلك الجد الذي لم أعرفه، "إبراهيم، ذلك الرجل الأسطوري، وفي مكان قريب وُلِدَتْ بعد ذلك جدتي "إليانا"، بَدَا اسمها غريباً بالنسبة لي برغم أن أبي كان يذكرها بعاطفةٍ لا حد لها. كان كلاهما يهوديًا، كلاهما مضطرب في بداية قرن مروع، كلاهما مرعوب من العداء المتزايد لليهود الذي هَدّدَ جيرانهما. وفي أحد شهور عام 1920م، هاجرا معًا إلى بوينس آيرس. هناك، وفي عام 1940، عندما تواترت أخبار اندلاع حرب طاحنة، وعندما ندرت خطابات العديد من الأقارب الذين تم ترحيلهم إلى الريف، حَمَلَت جدتي بوالدي.

بالنسبة للنصف الآخر من الأسرة، ربما تكون القصة غير دقيقة. ربما بسبب أسلوب أمي المُسهب، الملَخّص في الوقت نفسه، واسترجاع حكايات بالية سَبَقَ لها أن مَلّتْ منها. ربما لعدم وجود عقدة وحبكة مركزية. ترجع أصولهم إلى منطقة غير مؤكدة في إيطاليا، ولكن في وقت لاحق لحظتُ أن الاسم لا يؤيد الرواية، وأنه ربما يعطي انطباعًا بأننا من أصل إسباني. أعتقد أنهم رحلوا من إسبانيا إلى بيرو وكانت لهم مزايا أرستقراطية، حتى يُشَكّلوا في العاصة "ليما" نخبةً كاثوليكية كان أحد الحكام الغابرين يعتبرها ضرورية. ثم توالت أجيال ذات ثراء نسبي مادي مليء بالطرائف، كقصة جدة الجد أو أمها التي كانت تتضور

t.me/qurssan

جوعًا في حب رجل في فصل من تاريخ الأسرة كانت أمي تصفه بالرومانسية. لابُدّ أنها جدتي "ليونور"، التي أتذكرها تُحيطها هالة من الاحترام عندما كانت تقضي أيامها الأخيرة على كرسي متحرك، هي التي كانت تحكي لأمي قصص العائلة. ولابد أنها حكت لها أيضًا تلك القصة المملة، وكيف أنها تعرّفت على "ميجيل"، رجل الأعمال الأرجنتيني، الذي انتزعها من العاصمة وأخذها معه إلى مزرعة في منطقة السهول العشبية في الجنوب. قضت أمي طفولتها في هذه المزرعة، بصحبة أشقائها فقط، يسيطر عليها دومًا حُلم أن تهبط عليهم طائرة في يوم من الأيام لتنقذها، وفي النهاية تأخذها إلى مكان شائق. لكنها أنقذت نفسها عندما انتقلت إلى بوينس آيرس، تدس نفسها في الحشود على النواصي، وفي الممرات المكتظة بالمواهب.

لكنني لا أعرف لماذا أستعيد هذه الذكريات ولماذا أتطرق إلى تفاصيل غير مهمة، بعيدة عن حياتنا مثل أي روايات أخرى. أعتقد أنني كنتُ أشعر بالغربة دائماً، عند سماع هذه القصص الملتوية، وعند معرفة هذه المسارات النائية، وهذا الانتقال المستمر، وتلك البيوت المؤقتة الكثيرة. أعتقد أنني كنت أتساءل دائمًا عن ارتباط والديّ بالمدينة التي يعتبرونها ملكًا لهم. إذا بَدَا على الكثير من قبلهما أنهم مهاجرون أصليون.. إذا كان كثيرون قد جعلوا من منازلهم مجرد ملامح في المشهد البعيد، ومخاطرين

t.me/qurssan

بنسيان الوجوه القديمة العزيزة عليهم، وأماكن اختباءهم في الطفولة؛ لماذا إذًا يقاومون بشدة فكرة مغادرة البلد الذي أرهبهم، ولماذا يختلف الألم الذي يشعرون به الآن؟ أعرف أنه كان منفى، وهروب، وأنه كان مفروضًا عليهما بالقوة، ولكن أليست كل هجرة نقوم بها مضطرين بسبب الاضطرابات، أليست هروبًا إلى حدّ ما، أليست ناتجة عن عدم اندماج لا يمكن التخلص منه بالأرض التي كانا يعيشان فيها؟ أم أنني، بهذه الاعتبارات الحمقاء، وهذه الأسئلة غير المناسبة، أُقَلّل من قيمة نضالهما، واحتقر شأن مسارهما، وأُشَوّه سُمعة مؤسسة المنفى التي طالبتنا لسنوات بأشد درجات الوقار؟

t.me/qurssan

11

أرى زوجين شابين في صورةٍ باهتة؛ صورة بالأسود والأبيض أكل عليها الزمان وشرب. وثمة شيء في مظهرهما يتملك منهما، ويعطي شعورًا خاطئًا عن الفترة التي التقطت فيها الصورة - ربما حجم الشّعر، ربما الطيات الظاهرة في القميص، أو المقعد الحجري الضخم حيث يجلسان، أو شيء أبعد من ذلك لا أدري ما هو، وبطريقةٍ ما هو الذي يُخَلّدهما. ولأنهما والديّ، ولأنهما ليسا وحدهما في الصورة، لأن والدي يحمل في حضنه طفلة، عرفتُ أن الصورة ترجع إلى بداية الثمانينيات، ومع ذلك فهي تبدو لي أقدم من ذلك بكثير. فهم كشخصيات تاريخية، تلك التي أراها. يُوحي مظهره الجاد في الصورة بأنه تتويج لأشواط قطعها في الماضي، في واحدةٍ من المحطات العديدة في تلك الحياة المعقدة التي تتشابك فيما بينها وتتغلغل في الماضي الجمعي، مع مسيرة عصر، مع الشقوق الملتوية لحقبةٍ معينة من الزمن. لا

t.me/qurssan

أدري لأي حد أعرفهما. لا أعرف لماذا يبتسمان في سعادة. ولا أفهم تمامًا الترتيب المعقد للأحداث والمصادفات التي انتهت بالزواج، ولكن أعلم أنني مدين لهذه الزيجة بوجودي والكلمات البطيئة التى أكتبها الآن هنا.

لن يكون الابن هو الأنسب أبدًا لتقييم العلاقة بين والديه، ولفهم ما جذب أحدهما للآخر، وسبر أغوار المشاعر بينهما. لا يمكنه حتى أن يسأل عن اللقاء الغريب الذي جمع بين شابةٍ كاثوليكية ذات أصول محافظة وبين يهودي ينتمي إلى حي غجري يتمسك بالماركسية؛ لأنهما بذلك سوف يفقدان الهوية، ويصلان إلى الجمود. لا شك أنه حدثت مآسي معهما. ولكن يكفي القول إن كلاهما تخرج في كلية الطب، وأنهما تخصصا في الطب النفسي، وأنهما سيكونان بعد ذلك بقليل من المحللين النفسيين، الذين يمكن لهما فك أي لغز بسهولة. وتولد قصة خيالية أخرى: فلم يكونا شخصين متنافرين، ولكنهما اشتركا في نقد قسوة العلاج النفسي بالطرق القديمة، الشائعة في المستشفيات في جميع أنحاء العالم، والدعوة لعلاج أكثر إنسانية، وأكثر تفهماً، وأكثر شمولاً، وأقل ضررًا. وبين مرحلةٍ وأخرى تتنقل دراما هذه الحكاية: فلم يعد ما يجمعهما مجرد معتقدات بسيطة لأسرة بين أُسر كثيرة، ولكن جمعتهما المثُل العليا لشابين أرجنتينيين في قمة توتر الأداء السياسي.

t.me/qurssan

إذا كان هذان الشابان متساويين: فهناك بعض أوجه الخلاف البسيطة التي دائمًا ما تظهر في العلاقات العادية والتي لن تسمح لنا بفهمها. أعرف القليل من قصصهما الأولى، من الفترة التي يسمونها مرحلة الغَزَل، ولكن يبدو أنها جميعًا مرتبطة بفكرة الحماية، وهي الفكرة التقليدية التي تجعل من واجب الرجل حماية الفتاة، وتوفير الأمن الذي يرفض العالم أن يُوفره لها عندما تكون وحيدةً. وثمة قصة أخرى أكثر جرأة عندما كانا في طريقهما إلى المطعم، مَدّ ذراعه لاحتوائها، ويده مفرودة على صدرها بالتحديد؛ كان هذا الفعل مجرد انعكاس وحركة بطولية عرفت كيف تشكره عليها.. وتعانقت أصابعهما لتحتفل بالنهاية السعيدة. وبعد العشاء، كانت الدعوة للصعود معها إلى غرفتها، ليس لأنها أرادت ذلك، أو لأنها أرادت أن تنتهك تعاليم الكُتيبات المسيحية القديمة؛ ولكن لأنها كانت خائفة، وأنها فقط أرادت أن يقوم أحد بالتّحَقّق أمامها من أنه لم يكن هناك شيء تحت السرير من تلك الكائنات الشريرة التي كانت تملأ كوابيسها ذلك الوقت.

لم يتعودا الذهاب إلى منزله كثيرًا، لأنه كان خائفًا كذلك. كان يخاف من وقع الأكتاف على الباب، وكان خائفًا من الأذرع الخشنة عندما تعيثُ فسادًا في أغراضه، وخائفًا من أن يجد نفسه مُلْقَىً على وجهه ويديه مقيداتين في الأصفاد؛ كانت هذه

t.me/qurssan

هي الصور المظلمة التي تقض مضجعه، والتي تسببت له في الأرق المزمن الذي طالما لاحظتُه بنفسي عليه عندما كان كالطيف يحوم حول الثلاجة ليلاً. كان خائفًا أيضًا من رغبتها في النظر أسفل السرير حتى لا ترى الأسلحة التي كان يسمح بإخفائها عنده.

لا أرى أيًا من هذه المخاوف في الصورة، فقد التقطت في فترةٍ أخرى. ربما كانت الابتسامة على وجهيهما لإخفاء الخوف، ولتبديد القلق النهائي، والهدنة الجزئية، على الأقل التي وصلا إليها في النهاية في أحد ميادين البرازيل. أختي لا تبتسم، لكنها كانت مجرد طفلة رضيعة - والابتسام لمن هم مثلها لا يعدو كونه مجرد حركة لا إرادية، أو تشنج لا يفهمه أحد. ولم يظهر على وجه أخي سوى الدهشة. كانت شفتاه تتمددان إلى جانبٍ من الوجه تاركةً علامات التوتر على خديه، كما لو أن أحدهم يحثه على الابتسام دون رغبةٍ منه. لا تبدو عيناه ملونتان في هذه الصورة بالأبيض والأسود، تبدو عيناه مُحدقتان وتكاد لا تُرى، لكني شبه متأكد من أن هناك بعض الألم في الحواجب يجعلها تسقط ثقيلةً على العينين.

t.me/qurssan

12

أسلحة تحت سرير والدي، أُفكر في هذه الأسلحة، وأفسح لها الطريق إلى الوعي عندي. من مجموعة كبيرة من المشاهد الكاذبة أستنتج صورها: عدد قليل من المسدسات مقفول عليها في صندوق خشبي تغطيه قطعة من القماش المهملة بطريقةٍ محسوبة؛ كل ذلك تحت ضوء خافت يمر من خلال نافذة وحيدة مفتوحة، والستائر ترفرف بفعل النسيم. لا أفهم السحر الذي تُمارسه عليّ عندما أتصورها في منزل والدي تحت سرير العزوبية. كنتُ أشعرُ طوال حياتي بعداء تجاه هذه الأشياء؛ فهي عبارة عن لقاءٍ غير مريح بين التهديد الفعلي والرمز الكارثي، كنتُ مسالماً طوال عمري. الآن أفكرُ في هذه الأسلحة ولا أفهم النشوةَ التي أشعر بها والغرور الذي يتملكني كما لو كانت سيرة أبي تسري في جسدي: فأنا الابن الفخور لمحارب يساري وهذا يبرؤني جزئيًا،

t.me/qurssan

ويخلصني من الشعور بالتقصير، وهذا يُدرجني مؤقتًا في زمرة الثوار.

أنا الآن في مثل سن أبي آنذاك - وهذا كافٍ بالنسبة لي كي أعرف أن أسلحته ليست ملكي، ولا أريدُ أن أحملها حتى أكون أخًا له في السلاح، أستطيع فقط أن أتحقق من الأفكار، في محاولة لفهمها. وإذا لم أفهمها بعد، ربما لأنها لم تكن أبدًا معلومات نافعة، ولا حقيقة لا جدال فيها، فهي لم تكن موجودة دون نفيها المقنع. لا، لم يكن لدينا أسلحة تحت السرير. تُناقض والدتي كلامه في كل مرة بالحزم نفسه، وفي كل مرة يوافقها، ويرضى، ويُومئ برأسه. ثم يُسَلّي نفسه بمخاطبة الذات بطريقةٍ غامضةٍ ويُحدّثها عن المجتمع الفاضل الذي كان يرنو إليه وقتئذٍ، وعن نظرية "الفوكو" التي تَبنّاها "تشي جيفارا"، وحرب الفيتنام ضد الإمبريالية، والثورة الكوبية كمثال يُبَشّر بالخير، وتيار "الساندينزم" الثوري في نيكاراجوا الذي انخرط فيه كذلك بعض من الأصدقاء. لا، تصيح أمي غاضبةً في التو، من؟ هي تريد أن تعرف، وتسوق قائمةً طويلةً من الأسماء التي سمعتها مرة في محادثاتها، قائمة تحتفظ بها في انتظار الخطأ المحتمل: لا ، لم يكن هو، ألبيرتو، أو كارلوس، أو فيسنتي، لم يكن متورطًا في ذلك. وكيف لا، إذا كان قد ذهب إلى كوبا؟ ذهب إلى كوبا لأن صهره كان يعيش في هافانا، تُجيبه أمي. ذهب إلى كوبا كي يشارك

t.me/qurssan

في التدريب ويقاتل في نيكاراجوا، يصر أبي هذه المرة وقد نفد صبره، غافلين تمامًا عن هذا الذي يراقبهما في صمت ولا يعرف من منهما يُصَدّق.

هناك دائمًا توتر في النقاش حول هذه التفاصيل، كما لو كان كل حدث بسيط لا يقتصر على نفسه، على صغره الواضح، وأنه يخضع لوجهة نظر أعم وأشمل للأحداث. هناك أيضًا بقايا لتوترات من عقود أخرى، وحياء قديم يُؤَجّل كل جملة يسمحان لأنفسهما بقولها، وفكرة حذرة خارج سياق التاريخ، لسِرّ لا يمكن البوح به. كما لو كان الكشف عن هذه البيانات وذكر أسماء المشتركين فيها ضربًا من الطيش تُوَبّخ الحركة من يفعله - أو ما هو أسوأ، أن يُعَاقِب عليها جلادون عنيدون لنظام لا يعرف الرحمة. في بعض الأحيان يبدو وكأنهما يخفضان الصوت عند الحديث عن حدثٍ معين، ويذكران القصص في وسط الكلام، ولديّ انطباع أكيد أنهما ما زالا يخشيان آذاننا - أننا ما زلنا، في نظرهم، أطفالًا يجب تجنيبهم وحشية العالم، أو حتى عملاء مزدوجون خطرون يمكن في نهاية المطاف أن نسلمهما للشرطة عن غير قصد.

لمن، هذا ما أسأله، من سيكون مهتمًا اليوم بهذه التفاصيل التافهة لزمن بعيد، والجواب الذي يُكَرّره أبي دائمًا يُعَدّ مزيجًا مستحيلًا من الخيال وبُعد النظر: الديكتاتوريات قد تعود، يجب

t.me/qurssan

أن تعرف ذلك. الديكتاتوريات يمكن أن تعود، أعرف، وأعرف أن اختياراتهم، وأشكال ظلمهم والمعاناة منهم، موجودة بجميع أشكالها، في كل الأنظمة حتى عندما يسير حشد من المواطنين نحو صناديق الاقتراع كل سنتين - هذا ما أفكر فيه عند الاستماع ولكني امتنع عن قوله حتى أحافظ عليه من وحشية العالم أو خشية من ألا يفهمني.

ينفيان تقريبًا كل ما يقولانه لي، ويقف في حلقي تقريبًا كل شيء أريد أن أخبرهما به فتثبط عزيمتي. أعرف ولا أعرف أن والدي ينتمي إلى حركة.. أعرف ولا أعرف أنه تَدَربَ في كوبا.. وأعرف ولا أعرف أنه لم يصب ببندقيته هدفًا قط، بل حصر نشاطه في مداواة المصابين في حرب الشوارع، والبحث عن لوحات جديدة، والتبشير بالماركسية في الأحياء الفقيرة. وهو يعرف ولا يعرف أنني أكتب هذا الكتاب، وأن هذا الكتاب عن أخي ولكنه عنهم كذلك. وعندما يعرف، يعدني بإرسال وثيقة "عملية كوندور" التي يظهر فيها اسمه. وأطلب منه أن يرسلها، لكنني لا أعتقد أني أريد إدراجها في هذا الكتاب، ولا أريد أن أستشهد عليه بوثيقة. ولشعوره بالحرج، ربما من غروره، لم يكن يرسلني أبدًا للبحث في ملفاته. كما استشعرتُ الحرج كذلك في أن أسأل عنها مرةً أخرى.

t.me/qurssan

13

لم يكن أبي يريدني أبدًا. ولم يرغب أبدًا في أن يكون له أطفال. أقول هذا وأتوقع أن تتأذى مشاعر بعض القراء، وربما يفهم البعض الآخر شيئًا عني أو عن هذه الاعترافات المزعومة. وربما يضحك البعض الآخر ممن يعرفوننا من هذه الحماقة. وحقيقة أن والدي لم يكن يريد أن ينجب أبدًا هي شيء عرفناه دون أن يُسَبَّب لنا دهشة. عرفناه ونحن كبار، دون مأساة، وسط ضحك وسخرية أنه خسر المعركة ضد الأقدار. ولم تدهشني مقاومته هذه أبدًا: إذا كنتُ أنا نفسي، وأنا - مدفوع بمن حولي، وملتزم بتعاليمنا الثابتة بالتكاثر الذي لا حصر له - لا أزال أتأفف من حمل رضيع بين ذراعيّ يُقَال عنه أنه ولدي؛ لذا أستطيع أن أعتبر رفض أبي لحالة الأبوة معقولًا. تلك الحالة الفاشلة البائسة عن جدارة. لكني أتفهم دوافعه لذلك؛ ليس للتشابه بيننا بل للتضاد. فكيف يريد أن تكون له ذرية ذلك الذي

t.me/qurssan

يحاصر حياته الإرهاب، من لا يثق حتى بمشرق يوم جديد، أو بأي شيء من المستقبل، ذلك الذي يشعر في كل ليلة بخوار قوته، وزوال حياته المحتمل، ظاهرين في رعشة جسمه؟

ولطالما أذهلتني تلك القناعة الراسخة لأمي، وإصرارها على تكوين أسرة؛ حمل وراء آخر، ومولود وراء آخر. هذه الرحلة، وهذا النكران للذات، لم نستطع الاحتفاء بهما أبدًا ولا حتى بالضحك. تنقصني التفاصيل لكي أصف العوائق الكثيرة التي واجهاها، والإحباطات المعتادة التي كانت تزيد مع الوقت، والبحث المتواصل عن منهاج جديد. ولسبب غير معروف، وبسبب إجاباتهما غير الشافية، تبقى التفاصيل غامضة لأنها كانت تخفيها دائمًا. إن مأساتها هي مأساة العديد من النساء والكثير من الرجال، بالإضافة إلى الاضطرابات التي عمّت البلاد. حيث كانت العديد من الأرواح مُعَلّقةً، تعلقت روحها بروح أخرى نفخت في بطنها المقعرة، وبدا أن روحها كانت تنطفئ، لأشهر، لسنوات، تحمل العجز داخلها. لا، لم يكن الأمر كذلك، ربما تخالفني الرأي هي. ربما كانت الرغبة في إنجاب طفل في تلك اللحظة هو ما تبقى لها من الحياة، ربما كان شكلاً آخر من أشكال النضال، ورفض الإبادة التي خطط لها النظام. إن إنجاب طفل هو عمل من أعمال المقاومة. ربما كان التأكيد على

t.me/qurssan

استمرارية الحياة هو مجرد ضرورة أخلاقية محمودة، وطريقة أخرى لمعارضة همجية العالم.

لكن لم تفلح هذه المعارضة، ومع ألم الهزيمة الحاد، بل قُل الهزائم المتعددة، ومع تكرار الأحزان، ولد الحداد شيئًا فشيئًا. فلن يأتي ذلك الطفل المفترض، الذي تحلم به في سُهد الليالي: الابن الذي تحدثا عنه لينسى كلاهما المخاوف والقلق الروتيني، الطفل الذي كانت تتحسسه في بطنها أمام المرآة، فلن تحمل هي بهذا الطفل. لا أدري كم مر من الوقت حتى يتخلى أبي وأمي عن حلمهما، كل واحد بطريقته. أعلم أنهما قررا معًا أن يقوما بتَبَنّي طفل - أو أنهما اتفقا على أنها إذا تَبَنّتْ طفلًا فلن يُعَارض. وذات صباح في العام 1976، تحقق لها حلمان: الأول أن الطبيب أكّد أنها إذا اتبعت العلاج بانتظام فإنها ستحمل في غضون ستة أشهر؛ والثاني هو أنها سوف تكون قادرة على تَبَنّي مولود جديد وتتسلمه قريبًا. لم يباليا في هذا الوقت كثيرًا؛ فأي من الحلمين يتحقق أولاً سيضع نهاية لآلامهما. أي منهما سيكون موضع ترحيب، سيجلب لهما الفرحة الغامرة. أي منهما يأتي سيكون هو الابن المحتمل.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

14

إنه يلزم أربعة أشخاص. كان أبي يقول ذلك، وبعدما تخلو الأطباق من اللحم، ويُخَيّم الصمت على المنزل، وبعد أن يحكي الديباجة التي تُحيل القصة إلى راوية مجهول من زمن سحيق، ثم يضيف بعض التعليقات غير المهمة مُؤَجّلاً أي إشارة للموضوع، يصل في النهاية إلى الشعار، إنه يلزم أربعة أشخاص لإعداد طبق سلطة: بخيل، ومسرف، وحكيم ومجنون، تمامًا كما وصفهم كاتب المقال الهاوي الذي اخترع هذه المقولة. كان على البخيل أن يسكب كميةً ضئيلةً من الخل، أما المسرف يسكب الكثير من الزيت، أما الحكيم يشغل نفسه بوضع كمية مناسبة من الملح، أما المجنون فيخلط كل ذلك في حماس.

أفترض أننا كنا نجد متعةً في هذا، أختي وأنا - فقد كنا أطفالاً، وكنا نلهو بهذه الطرفات. كنا نستخلص دروسًا عن الوجود وعن سلطة السرد الساحرة. لكني أتذكرُ أنني أشرت ذات

t.me/qurssan

مرة إلى شيء أزعجني، وفكرة أحترمها حتى يومنا هذا، والتي لا تزال تأتي لي عندما أسرح بتفكيري، لكنها كاشفة، وتكشف جيدًا سذاجتي. لماذا لا يمكن للحكيم أن يقوم بكل شيء؟ كنتُ أتساءل كرجل حكيم ينبغي أن يكون قادرًا على تدبر الكميات المناسبة، فيبالغ عند الضرورة، ويمسك يده عند الحاجة، وينجز مهمته بكل ما أُوتي من قوة في ساعديه.

يضحك والدي، وأعتقد أن في ضحكه كان هناك بعض الرضا. أعتقد في تلك المناسبة أنه كان ساخرًا، وأنه تمالك نفسه كيلا يخرج ضحكه ازدراءً لتقديري المفرط للحكمة والعقلانية. إذا كان لم يُنكر عليّ تفكيري، فذلك لأنه ظن أنني سأتعلم قريباً بمفردي، وأن الأيام سوف تبدد قدراتي، وتُجبرني على التواضع. وكان كل يوم يأتي يجبرني على شيء؛ إنها حقيقة، لكنني أتعلم بصعوبة. هذا الدرس عن الوجود صَعُبَ عليّ دائمًا استيعابه.

t.me/qurssan

15

وتنبض الذاكرة بالمواقف الحرجة في الأيام الخوالي: مواقف واضحة وتعج بصور واضحة وضوح الشمس، لا لبس فيها أبدًا. لا تترك لي مجالًا للشك. ومن المفارقات أنه يبدو من الصعب عليّ أن أحكيها، إذا كان لابدّ لي من التأكيد على وقوع بعض الحقائق المحددة، حتى لو بقي عليّ التكهن بمدلولاتها. لا أسمح لنفسي بالقول إن الأمر لم يكن هكذا - كما قال أبي ذات مرة في جملة حمقاء، جملة وخيمة العواقب، نفي مزدوج ومصادرة لرغبة أخي في الإثبات. لكني هنا، أنفي ذلك مرة واحدة فقط، ولا أريد الحديث عن أبي. هنا أريد أن أتحدث عن أخي، الأخ الذي ذهبت إليه في ليلة حمقاء، ليلة وخيمة العاقبة، ومنذ ذلك الحين لم أدرِ من أنا، ولم يعد هو لي أخًا كما كان.

لقد مرت سنتان أو ثلاث سنوات منذ أن كنا نشترك في الغرفة، ونتقاسم الصمت والعزلة. وكان لكلّ منا عالمه الفريد من

t.me/qurssan

الصمت والعزلة. كل منا يحارب أشباحه عند الفجر. ولم أكن آوي إلى غرفته كل ليلةٍ لأنني أشعر بالوحدة، أو أخاف من الظلام - كنتُ قد كبرتُ، وصرتُ مراهقًا تقريبًا. لم أكن أسمح لنفسي بالظهور كشخص ضعيف. وربما صارت عادةً، أو ضربًا من ضروب التّعود على أشياء محددة في ساعات معينة، لكني أستمتع لمجرد التفكير بأن النشوة تتملكني وأنا بجانبه، نشوة غامضة أو فارغة، لكنها لا تنتهي.

في تلك الليلة زادت عزلة كلانا بعزلة شخص آخر؛ حيث انضم إلينا صديق لأخي. وبين ثلاثة أولاد بَدَا الصمت غير مناسب. كان يجب أن يمتلئ المكان بالنكات والضحك والإيماءات كي نُسلي أنفسنا، ونؤكد كل لحظة على هويتنا. التزم كل منا بمكانه. لكن في لحظة، دون أن أفهم ما الذي استبعدني، لم أعد جزءًا من الحوار، لم يعد لي مكان، لقد كانا شابين يتحدثان عن شيءٍ ما. فقط كان يمكنني أن أشعر أن بلوغي كان وشيكًا. لو كنتُ حكيمًا لأثرت الصمت، وكبحتُ جماح نفسي. ولمّا كانت الحكمة تنقصني، فإني جعلت من الكرة التي كانت في يدي الكلمة التي يجب أن أشارك بها، فرميتها بقوةٍ صوب رأس الرجل، رأس صديق أخي. لم يكن ذلك غضبًا، أقول إنه لم يكن غضبًا مني وأعتقد أنني على حق. وقبلها بثوانٍ كان يغطي وجهه بكفيه، لابُدّ أنه كان يعترف بشيء خطير أو مؤلم، وأعتقدت أنه لم يأخذ

t.me/qurssan

حذره، وأنه سيكون مضحكًا أن أضربه. من رد الفعل علمتُ أني كنت مخطئًا، وأنه لم يكن مناسبًا أن أضربه بالكرة في رأسه. وأن هذا لم يكن وقت المزاح، وأنه كان عنفًا غير مبرر مني، عنف مختلف عن أي عنف آخر، لم يكن مناسبًا بين الإخوة أو الأصدقاء، ولا حتى مناسبًا لصُحبة من الشباب.

طردني أخي من الغرفة، لكن القول بأنه أخرجني من الغرفة غير دقيق - وليس مجرد تشويه، ولكن عكس الواقع تقريبًا. لم يطلب مني الرحيل أو دفع بي إلى الممر. بل أخذني من ذراعي وقادني في الاتجاه المعاكس، إلى الباب الذي يُفضي إلى الشرفة. تركني هناك في الليل - وكانت الليلة باردة، هذا ما تمليه ذاكرتي بميولها المأساوية - وحبسني وراء الباب الزجاجي. كان الباب طويلًا، كان ضعف طولي، وضعف عمري، وبه لوح زجاجي ضخم. كنتُ أرتجف حينها من البرد وأتميز غيظًا، ولم أدخر جهدًا في نعته بما حضرني من الصفات. كان سُخطي مُعَبّرًا ويائسًا، لكنه لم يرضيني، ولم يخفف البرد عني، ولم يُهدّئ غضبي. لو كنت حكيمًا، لا أدري ماذا كنت سأفعل، لم أكن لأركل الباب. ليس لدي تخيّل للوح الزجاج الضخم يتحطم في لحظة طويلة، ولا لذلك اللوح الضخم وهو يذوب فوق سجادة من الشذرات، ولا أستطيع أن أتخيّل وجه أخي إما خائفًا أو مبهورًا بالمشهد غير المتوقع، لكنني لا أنسى الضجيج، ذلك ضجيج لا يمحى من

t.me/qurssan

ذاكرتي، ولا أنسي الارتطام الحاد الذي لا نهاية له للزجاج على الأرض الخشبية، ذلك اللحن الصارخ يتردد صداه كثيرًا، يتردد صداه إلى ما بعد الحدث نفسه.

ركضتُ، لابد وأني جربتُ وحبستُ نفسي في غرفتي. أذكر أن الدمع سال حينها من عينيّ ربما حتى أتمكن من التخلص من تلك الصورة، صورة أخي على الجانب الآخر من الزجاج المحطم إلى شظايا. لم أكن خائفًا من العقوبة التي سيوقعها عليّ، ولم أخشى من أن أمي قد تقتلني. إذا كنتُ بكيت كثيرًا بكاء طفل لم ينتحب منذ زمن بعيد، وإذا كنتُ قد عاقبتُ نفسي بالعزل الإرادي؛ فمن المؤكد أنها لن تُشَدّد العقاب عليّ. ومن المؤكد أنها سوف تسامحني عندما تراني أُعاقب نفسي.

أتذكر أنها دخلت وجلست على السرير بجواري، وأنه لم يكن هناك غلظة في كلامها. ربما قالت ما هو واضح - أنني كنت مخطئًا، وقد تسببتُ في أضرار كبيرة، وأن الحظ أسعدنا بأن لم يُصب أحد بأذى، إلا أنها أُصيبت بخيبة أمل - ولكن أظن أنها كانت تفتقر إلى الحزم، وأنها لم تستغل السلطة المخوّلة لها، وأنها إذا أطالت الحديث فلم يكن ذلك كي تُوبخني أو تقنعني بشيء؛ بل لكي تبقى بصحبتي وتسليني في عزلتي. ولا تسعفني الذاكرة هنا، يبدو من الظلم القول بأنها طلبت مني احترام مكان أخي، وعلاقته مع أصدقائه، وخصوصيته. يبدو من الظلم أن

t.me/qurssan

نتهمها بمثل هذا التناقض؛ إذ إنها بعد سنوات ناشدتني مرات عديدة أن أبحث عنه، وأن أكسر عزلته، وأن اقتحم عليه فراغه الخاص. لا ، لم يكن بناءً على طلبها أني حبستُ نفسي في مكاني، وفيه تعودتُ على مجموعةٍ من العادات، وتعودتُ على غيابه، وعلى بُعده عني. ليس بناءً على طلبها، أني لم أعد أتردد على هذه الغرفة كما كنت أفعل من قبل. لم أعد أعبر الممر برفق، ولا أمر على الغرفة أقرع بابها في مهابة غير مسموعة، واستفسر دون كلمات، وأنا خجول قليلًا إذا كان بإمكاني الدخول.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

16

جَلسَا على المائدة في الساعة التاسعة. وقد بلغ منهما الجوع مبلغه. كان الطعام وفيرًا، لكن تم إجبارهما على تأجيل هذا الحفل إلى أجل غير مُسَمّى، وعلى تجنب الشبع، لأن مجرد الأكل يعني القبول بالفشل كمضيفين للحفل. لا طعم الآن سوف يأسر الذوّاقة، ولا متعة ممكنة في التهام الطعام. لا تزال الأطباق مكدسة على البوفيه، وأدوات الطعام مرتبة في أماكنها، والمشويات المتعددة ما زالت تحتفظ بحرارتها دون جدوى، وأربعة أذرع تتدلى إلى جانب الأجسام، تشير أصابعهم الخاملة إلى الأرض. كان من المفترض أن يكون عشاءً. تأسف كلاهما على ما هم فيه. كان من المفترض أن يكون اجتماع أُنسٍ حميم، ومناسبة للتباهي وشرب النخب. والانخراط في الضحك والترويح عن النفس، والنقاشات العقيمة الثملة. كان من المفترض أن يكون حفل عشاء، وليس مجرد سد رمق الجوع.

t.me/qurssan

لم يحضر أحد، ولا ضيف، ولا اعتذر أحد. ولما فقدا الأمل في أي طارق يطرق الباب، بقيا جالسين هناك دون أن ينطق أحدهما بحرف، يستجوبان الجدران بعيون مضطربة، يستجوبان حتى الأحذية. لماذا هجرهم الجميع؟ من الذي أستوقفهم أو كبّل خطواتهم؟ هل كان هذا امتناع جماعي دُبّر بليل؟ كان العشاء لزملائها، زملاء المستشفى، حيث كانت قد رُقّيت للتو إلى منصب أعلى؛ زملاءها الذين تلتقي بهم كل يوم، وتشاركهم شرب القهوة في الممرات وتناقش معهم الحالات الخطيرة على مَهل، وتدير معهم مناقشات رصينة حول إصلاح تلك المؤسسة التي مرت عليها بالفعل أوقات أسوأ، داخل حجراتها على الأقل. زملاء كل الأوقات، رفاق الكفاح اليومي، لماذا اختفوا، لماذا يصمتون الآن؟

لم يقلها أحد أبدًا، لكن كان الأمر واضحًا جدًّا؛ لقد اعتبروا أن منزلها مكان خَطِر. صحيح أن الاجتماعات كانت محظورة، وأن جميع اللقاءات المناهضة للنظام كانت مُحَرّمة، ولكن هل يمكن اعتبار عشاء بسيط ضمن هذه المحرمات؟ إلى هذا الحد كانت الحياة محظورة، وكان المنزل مُقَاطَع، والصداقة مُعلّقة؟ نعم، لأنه إذا كان هذا ما شعر به الآخرون؛ كل هؤلاء الأشخاص المقربون، إذا كانوا يعتبرون منزلها أرضًا مُلغّمة، كيف امتنعوا عن قول أي شيء، عن تحذيرهما من المخاطر التي كانت

t.me/qurssan

تحيطهما؟ إن السكوت في هذه الحالة، السكوت هو الامتناع، هو الاختفاء، ألا يُعتبر الصمت في هذه الحالة خيانة؟ دون اتهام، ودون أن يقولا كلمةً، جَلسَا هناك، غير عابئين بالجوع، كافرين بالأخلاء، ولم تكن حالتهما حساسة وضعيفة أبدًا إلى هذا الحد، ولم تكن نوافذهما مفتوحة إلى هذا الحد، ولم تكن جدران بيتهما هشة إلى هذا الحد.

لم يتم توثيق هذه الليلة، ولم ينهض أيهما لإحضار الكاميرا لالتقاط صورة تذكارية، لم يحاول أيهما تذكر هذه الليلة. ولسبب ما، يحضرني المشهد بصورته الثابتة تقريبًا، كجزء من الثانية يتوقف في وسط اللانهاية. ينكفئ والديّ على المائدة، أكتافهما محنية، والطعام يتصاعد منه البخار، لم يمسه أحد. أعلم أنني أبالغ في المأساة عندما أصفهما بهذه الطريقة، أعرف أنني أعطي القضية وزنًا مبالغًا فيه، وزن لم تنقله لي حتى حكاياتهم أبدًا. لكني أعتقد أني أقوم بتهويل هذا الوزن لأنني أستطيع أن أشعر به، لأنني أفهمه بطريقةٍ أو بأخرى، أو أعتقد أنني أفهمه. أعرف الإحباط الذي يُسَبّبه فشل حفل عشاء. أعرف، ربما، الأرق الذي يُسَبّبه شعورك بعدم القدرة على ملء الفضاء الخاص بك. وأعرف. حتى بشكلٍ غير مباشر، الشعور بأن منزلك مُراقب.

ما لا أعرفه، ولا أفهمه، هو ألم إلغاء عشاءات أخرى في الليلة نفسها، ألم حرمان من نوع آخر، وألم من إنكار الذات، ومن

t.me/qurssan

الاستجوابات السمجة. ألم أذرع أخرى تتدلى على جوانبها، وأصابعها خاملة أكثر من أصابع والديّ، تشير إلى أرض أقرب بكثير. لا أستطيع أن أفهم قمع كائن مُسْتَغَل إلى أقصى حد، والتدمير الممنهج لهذا الكائن، وتحويله إلى أداة لممارسة التعذيب عليها. لا أستطيع أن أتخيّل، ولهذا تبدو كلماتي أكثر تجريدية، لا يمكن وصف الظرف الذي لا يُعَدّ فيه الصمت خيانةً، حيث يُعَدّ الصمت مقاومةً، ودليلًا دامغًا على الوفاء والصداقة. اصمت لإنقاذ غيرك؛ والصمت هو التضحية بالنفس. ربما كان والديّ مُشتتيْن هذه الليلة، ولكن السؤال الذي لم يغب عن ذهنهما: كيف لزملاء العمر ورفاق الكفاح اليومي أن يختفوا هكذا، ولماذا يصمتون الآن؟

t.me/qurssan

17

في العالم الذي أعيش فيه، أصبح الشارع غير مضياف برغم أن سُكناه تصبح أحيانًا أمرًا حتميًا، وكل من يعيش فيه لا يهدأ له بال. في العالم الذي أعيش فيه، أصبح الشارع موطناً للشك، للتهديد والخطر، ومن يريد الحماية يعود إلى بيته، يُغلق عليه بابه، يُؤَمّن نفسه في مجاله الخاص. أما في العالم الذي كان يعيش فيه والديّ، في ذلك العالم، انقلبت هذه المفاهيم، وانقلبت القسوة لتصير أكثر قسوة. فحماية النفس كانت آنذاك بالابتعاد عن البيت، وبالبقاء في الشارع لأطول فترة ممكنة. في العالم الذي كان يعيش فيه والديّ، كان المنزل غير مضياف.

في صباح أحد أيام أكتوبر، أصاب أبي الذعر، أو قُل آثار الإرهاب الكامنة في عيادته. فما إن أزاح الباب المكسور من طريقه حتى وجد نفسه يواجه فوضى الأوراق المبعثرة والأشياء الساقطة والزجاج المكسور، وتحوّل مكانه المعتاد إلى مقبرة غير عضوية.

t.me/qurssan

لم تكن فقط مجرد مداهمة للعيادة وتفتيشها، ولكن دمرتها القوة العسكرية الغاشمة، أو قل عذبوها بتؤدة كي تعترف على صاحبها وشريكها في الجريمة. من بين الأشياء القليلة التي أنقذها والدي دون تفكير كثير، شيء قاوم العقود المتعاقبة وتَنَقَّل في أماكن كثيرة، هو ذكرى فقط من ذلك الفضاء المدنس: إنه تمثال صغير لبوذا الذي كان يومًا بعد يوم يقف رافعًا كتبه بيديه في مهمة شجاعة لم يعد يستطيع ممارستها الآن. بعد أن سقط على الأرض، وكُسِرَت قدماه ويداه، وصار التمثال الآن عبارة عن قطعة من الحجر عديمة الفائدة، لكنه ما زال يحتفظ بالابتسامة العريضة التي يتميز بها.

لا أعرف كم مرةً ابتسم أبي في الأشهر التي تلت ذلك؛ تلك الأشهر التي أبعده الخوف فيها عن عيادته، أشهر أبعدته الحكمة فيها بعيدًا عن منزله. كان روتينه اليومي هو التنقل دون ملل، والفرار من التهديدات في العيادات المستعارة، والكشف على عسكريين آخرين في البارات، والمراوغة في منازل الأُسرة الأخرى، وفي شقق الأصدقاء، وفي الغرف المستأجرة. في بعض الأحيان كان يسكن في بعض الفنادق الرخيصة باسم مستعار، وكان العيش هناك معناه القبول بضياع كل عزيز عليه، والتضحية بكل ما يملك. في هذه الأمسيات، كان يقرأ ويكتب لكي يسابق الزمن وربما كان يهرب من نفسه بالتفكير في الأشياء، وحالها الذي يُرثى

t.me/qurssan

له، والحاجة إلى إصلاحها. ولكن عندما يغلبه النعاس في النهاية، وعندما يسمح له الأرق العنيد بغفوةٍ كالمخدر، كان العيش لا يزال بالنسبة له هو التعود على التجرد وعلى الحياد.

عندما أوشك العام على الانتهاء، جاء ابنه: ذلك الصبي الذي سيكون ابنه، والذي سأكون أخاه، مما دفعه إلى تجاهل الأخطار والعودة إلى المنزل، واستعادة الألفة المعتادة للأيام الخوالي، واستعادة الحياة التي سُرِقَت منهما. إن العيش مع طفل وليد يتطلب الوجود باستمرار، داخل البيت، والطفل يحتاج ساعدين يحملانه ويوفران له الأمان. إن العيش مع طفل يساعد على إعادة الصلات الخاصة بالنسبة للأقرباء، ويفتح الأبواب لمن أراد أن يعرف الصبي، لمن أراد أن يهدهده ويشعر بالعافية في ساعديه عند حمله. وأراد كثيرون، وطرق كثيرون الباب، وشعُر الكثيرون أن الحاضر كذلك قد صار له وجه آخر، وجه يتنافى مع الخسة والنذالة، حاضرٌ يظهر فيه أيضًا أشخاص غير متوقعين.

في المبنى، لم يمر الوقت دون أن يلاحظهم أحد، واقترب بعض المسئولين للتحقيق معهم. وذات يوم كان أبي خارجًا وهو يسحب ابنه من يديه، فاقترب منه البوّاب في مزيج من الفضول والحرص، وأخذ يراقب تعبيراتهما بشيءٍ من الريبة، ثم فحص وجه الصبي الذي ظهر فجأةً من العدم ودون مقدمات بعد الغياب الطويل لذلك الرجل الهارب. ومن العينين الزرقاوين لأحدهما والعينين

t.me/qurssan

الزرقاوين للآخر لابُدّ أنه لاحظ تشابهًا حقيقيًا، لأنه أطلق تعليقًا يبدو منه التواطؤ الفاحش عندما غمز بعينه بطريقةٍ ساخرةٍ وهو يقول: لابُدّ وأن المدام قديسة!

في تلك الليلة كانت ابتسامة بوذا خجولة مقارنةً بابتسامة والدي. تَقَاسَما السرير نفسه، وتَقَاسَما بهجة الأرق الذي يُسَبّبه بكاء الوليد، وافتتح والديّ الضحك الذي سوف يُكَرّسَانه للطرفة المستقبلية: الضحك الذي يربح الأحشاء فيمد الجسم بقوةٍ سحرية، والارتخاء المحبب لأعضاء الجسم التي ما زالت بعافية.

t.me/qurssan

18

أبحثُ عن هذه الشقة، الشقة التي عاش فيها والديّ. أبحثُ عن هذه الشقة برغم أنني أعرف أنه لا يمكنني دخولها. أنا عند الناصية بين شارعيّ "جنين" و "بينيا"؛ كان والديّ يشيران إلى البيت بهذا الموضع، كان هذا وصف البيت في حكاياتهما غير الرسمية. في زاوية عند التقاطع يوجد مبنيان متطابقان تقريبًا، كل منهما يظهر بواجهة متناسقة، ورواق قديم، وجدران رمادية تقريبًا تراكم عليها الغبار. للحظة، أشعر بالضعف، قدماي تتعثران بلا هدف، ليس لديّ يقين محدد، أشد على قبضة يديّ، كل ما أعرفه غير دقيق، لا أدري أي بناء ألتمس.

لكنني أضغط زر أول "انتركم" في متناول يدي بأصابع جامدة، وقد تلاشت كل أحزاني. فقد سيطرت عليّ اللامبالاة، وشيء يشبه الشلل في صدري: لم أعد أهتم إذا كان هذا هو المبنى أم لا، إذا كانت هذه هي الحقيقة التي أتمنى، وإذا كان والديّ قد تَعَرّضَا

t.me/qurssan

للاضطهاد هنا وقضى أخي أيامه الأولى أو الأشهر الأولى من هذه الحياة التي أقتفي أثرها عن بُعد. وإذا كنتُ أشعر بعدم مبالاة هكذا، وإذا كنتُ لا أفهم فرصتي السانحة تمامًا، فلماذا لا أستجمع قُوى هذا الجسم المكسور تقريبًا وأرحل من فوري؟ لماذا أتوق بدلًا من ذلك إلى هذا الصوت الخالي من العاطفة الذي يُجيبني دون أن يُخفي سأمه مني، صوت البوّاب الذي يحثني على متابعة تحفظه، ومتابعة إجاباته الآلية بـ" نعم"؟

لا، هذا ما أقوله له، وكُلي تردد. أنا لا أبحث عن أي شخص في هذه اللحظة، ليس لديَ سوى بعض الأسئلة، إذا سمحت لي يا رجل، وأنا آسف على ازدواج المعنى في كلامي، والتردد بين نبرة الطاعة ونبرة الفضول. جاء الرجل يستقبلني بخطى بطيئة وظهر في وجهه التعب نفسه في الصوت والساقين والتجاعيد التي لا تُظهر الضحكات القديمة، إنما ترسم فقط بضع سنوات من الكسل. أبحث عن زوجين عَاشَا هنا منذ زمنٍ بعيد، وأُناقض نفسي، محاولًا وصف هذين الزوجين مع ملاحظة كيف أفتقر إلى صفاتٍ ملموسة، وسماتٍ محددة، فليس عندي سوى مجردات فقط واحتمالات. أشرحُ له أنهما عَاشَا مع طفلٍ رضيع، في السبعينيات، واضطرا للمغادرة، هل يعرف الرجل شيئًا عن هذا؟ أشرح لكسر الصمت الذي يُخَيّم عليه؛ أني أريد أن أعرف

t.me/qurssan

المساحة التي تركوها في عجلةٍ من أمرهما، لذلك ربما تعرف من هُمَا، وكي أفهمهما بشكلٍ أفضل، وكي أقترب منهما.

لم يسمح لي بالمرور وبقي غير مُصَدّق لي إلى حَدّ ما. أو قُل إن ما أراه في وجهه ليس تكذيب ولكنه عدم فهم، إلى جانب عدم الاهتمام الذي لم يَقِلّ عندي. لكن ألا تعرف حضرتك اسمهما. يريد أن يعرف، وأنا أضحك تقريبًا لأدرك كم أنا بعيد عن الحوار المعقول، وعن أدنى درجات الرصانة إلى حد أنني فشلتُ في التعبير عن نفسي بوضوح. نعم، أعرف، أجيب بتنهد يكشف عن استيائي؛ فهما والديّ، والطفل هو أخي، وأنا أعرف أين هم، فهم لم يختفوا. أردتُ فقط أن أعرف الشقة التي عاشوا فيها لأني أكتبُ كتابًا عن ذلك الموضوع. وهنا يتخذ صوتي نبرة مُهَابة، وفخر لا مُبَرّر له أحاول أن أخفيه؛ كتاب عن هذا الطفل، أخي، عن آلام الطفولة وتجاربها، وكذلك عن الاضطهاد والمقاومة، عن الإرهاب والتعذيب وعن الاختفاء القسري.

وللمرة الأولى أحصل على رد فعل من البواب، ولأول مرة يتلوى وجهه الجامد في تعبير غير متوقع، تعبير أفهمه عندما يُتَرجَمُ فقط إلى موجةٍ من الاستخفاف. نعم، مرة أخرى، مذكرات ثانية عن السبعينيات، يقولها وهو يتحرك، ويفتح البابَ على مصراعيه ويُدخلني إلى البهو. ومَدّ ذراعه في ثبات واحترام، تفضل، تفضل سيادتك، افعل كل ما تريد. لكنني لم أتحرك، أقف ساكنًا أمام

t.me/qurssan

هذا الرواق القديم، تلك الجدران الرمادية، وأنا لا أدري ماذا أقول. امتد الشلل من صدري ووصل إلى قدميّ ويديّ حتى أطراف أصابعي. هذه هي العافية التي جاءتني، كان الشلل هو جسمي كله.

t.me/qurssan

19

لا أستطيع اختراع قصة عن الولادة، لا يوجد شيء معروف عنها. أعتقد الآن، بعد كتابة الكثير من الصفحات، أنه كان ينبغي عليّ أن أستجيب لدوافعي بمحو تلك المشاهد المتَخيّلة البانسة، وأنه كان لابُدّ أن أستسلم للتردد وأصمت عن هذا الحدث الذي لا يُمكن تصوره. لم تكن ولادة أخي كذلك، لم تكن موضوعًا يُحكى. الغرفة البيضاء أو الكِشْك القمعي، وصوت وقع الأحذية على الأرض أو الأيدي الماهرة في التفتيش، كفى، هذا يكفي، فهي كلها روايات مُستبعدة، ولا تعدو أن تكون تشويهًا. فلتخفض المرأة ذراعيها التي امتدت بلا منطق، المرأة وحطامها، يقفان ضد كل التوقعات في عقلي العقيم. ولنتجاهل كذلك الصبي: الصبي وتشرده، الفتى وإنقاذه، ذلك الفتى الذي لم يكن أخي. فولادته لا أستطيع أن أتخيّلها، وأُكَرّر أنه لا توجد معلومات لديّ عن الولادة.

t.me/qurssan

وُلِدَ أخي بعد يومين من المخاض، وُلِدَ في منزلٍ بعيد على أطراف بوينس آيرس، منزل به بعض الأثاث المتواضع والجدران المقشورة، منزل ذو نوافذ مغلقة - أصِفُه مفترضًا أنه كان كذلك. تَوَجّه والديّ إلى هذا المنزل خائفيْن، يعبران شوارع غير مأهولة بالسكان تقريبًا، يناقشان الطريق في شجار، ويُبَدّدان الشوق في توتر مقصود. كانا قد تلقيا مكالمة في صباح اليوم السابق، إحدى النساء الثلاث اللواتي اتفقا معهن، كانت هي القابلة التي تعمل كوسيط، معها الآن طفل مجهول المصير، مولود لم تتعدى ساعات عمره عدد أصابع يديه الصغيرتين - أحيانًا تتأرجح مشاعر القابلة أيضًا بين البرود والعاطفة. فهي لم تجد الزوجين الآخرين اللذين كانت ستمنحهما الطفل، وكان من الضروري أن تجد من يعوله قبل عيد الميلاد. وعلى البُعد، من وراء صوت القابلة والضوضاء التقليدية لخط التليفون، كان هناك طفلٌ يبكي، في صراخٍ يتقاطع مع ضوء الصباح. كان ذِكْرُ والدتي لهذه التفاصيل دائمًا ما يُحَرّك شجوني، كما لو أن هذا البكاء كان أول محادثة بينهما، حوار بين البكاء والصمت، ليختصر الفضاء ويُعَجّل باللحظة التي تضمه فيها إلى صدرها.

أما بالنسبة للحظة التي ضمته فيها إلى صدرها، فإنني أُفَضّل ألا أتطفل على تلك العلاقة الحميمة الخاصة بهما، أفضل عدم التخمين إذا كان توتر الطريق قد تحوّل إلى ابتسامات، وكذلك

t.me/qurssan

كل الشوق المتراكم مع مرور الوقت. وأترك هذه المرأة والصبي الوليد الآن، وأنا على ثقةٍ، أنها ستصبح له أُمًا، وستكون لي كذلك، وسيكون ذلك الصبي لي أخًا. وسأترك ذلك الرجل الذي كان يسترق النظر في خجل، ويمد يديه فقط، كي يلف الصغير، هذا الجسد الهش الذي سيكبر يومًا. إنه لن يكون أبًا بعد، فهو مُستغرق في ذهوله الذي حرص على إخفائه برصانة، وفي ضعفه الذي سيبوح به بعد ذلك بعقود عِدّة.

أترك الأسرة هناك، تتكون على مهل.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

20

أترك الأسرة هناك وأنتقل إلى الغرفة المجاورة، أنتقل إلى الساعة التالية. أخطو إلى المأزق الذي ظهر فيما بعد. وهو أن التّعرّف على أصل المولود على وجه الدقة لم يكن الإجراء الأفضل. أصرت القابلة، يدعمها في ذلك عدد قليل من الكتب كان والدايّ يعرفانهم عن ظهر قلب. كان الخطر في أن تبوء الأسرة بحمل على عاتقها، لتعلّقها المبالغ فيه بالمعلومات. فالأسماء والظروف يمكن أن تؤدي إلى زيادة التفكر، وإلى تعاطف يجلب المتاعب، وإلى رذيلة التعاطف المفهومة. قد يكون التنازل عن الابن عملية مؤلمة وتضحية قاسية؛ أكدت القابلة على ذلك أو تكلمت الكتب عن ذلك، ولكن كم من تضحيات صعبة ليس لها أسباب منطقية؟ وليفهما ما كانت تقول بطريقةٍ أفضل، وكي تميل قليلاً إلى مصلحة الزوجين، حكت باقتضاب الرواية الأكثر

t.me/qurssan

إيجازًا، وهي الرواية الوحيدة التي ستكون لدى والدَيّ حول الطفل الوليد، والوحيدة التي كنا نسمعها عن أصل أخي ونَسَبه.

ولدته "إيطالية صغيرة"، قالت ذلك القابلة، غير عابئة بغموض كلامها، ذلك الغموض المزدوج الذي لا تغفله أذن مستمع يقظ. هل كانت "إيطالية" الجنسية أم من أصل إيطالي؟ أما عن "صغيرة" التي ليست في مكانها، فهل تشير إلى أنها حملت في سن صغيرة أم تشير إلى ضآلة بنيتها؟ لا شيء من ذلك على الإطلاق، قالت القابلة، ولم يستطع والديّ فك رموز هذه التسمية. لقد وُلِدَ لامرأةٍ إيطالية صغيرة لم تكن ترغب أبدًا في الحمل، واختفى قرينُها منذ البداية بكل بساطة، غير راغب بتحمل المسؤولية. وبعد أن هجرها فتاها، عانت الفتاة هجر جديد، من عائلتها المسيحية التي لا يمكن أن تقبل بهذا. لهذا السبب، لما ولدت طفلها، قررت التضحية به لشخص آخر: كانت تضحيتها خوفًا من أن تجد نفسها مقطوعة الأهل.

لا أعرفُ كيف خرج والداي من هذا المنزل، ولا أعرف إذا كان هناك حِمْلٌ يُثقلُ خطوَهما، أو بعض الشفقة الأصيلة فيهما. أعلمُ أنني يمكنني العودة معهما فقط في هذه السيارة، أعود إلى جوار أخي، ولا يمكنني أن أهيم في شوارع هذا الحي النائي بحثًا عن تلك الإيطالية الصغيرة، في وحدتها وآلامها. هل سيكون هناك ألم أيضًا داخل السيارة، أو راحة وفرح، أو مجرد حيرة

t.me/qurssan

صامتة؟ لم تقل والدتي شيئًا من المسكوت عنه لسنوات عديدة، لكنها كانت تخشى من أن تعرف أكثر مما تعرف، تخشي ظهور المرأة الشابة على الناصية التالية، عند الإشارة التالية، تخشى أن تضرب بقبضتها زجاج السيارة بحماس لا يمكن إنكاره عليها. كان والدي يقود دون الضغط بقوةٍ على دواسة الوقود، يقرأ كل علامة إرشادية تظهر له، متجهًا إلى وسط المدينة أو عائدًا إلى الضواحي؛ كانت المسارات كثيرة، والأسئلة كثيرة. ألم يكن الأمر يستحق معرفة من تكون هذه الإيطالية الصغيرة؟ وإلى أي مدى نثق في هذه القصة المقتضبة للقابلة؟ وإلى أي مدى سوف يتوق الوليدُ يومًا ما إلى معرفة القصة، عندما يكون الأمر قد خرج من الأيدي، وهل هو محق في شوقه هذا، وهل لنا حق البحث في الموضوع؟

أعود معهما في السيارة وأنا صامت أيضًا، لا أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة. سأتبعهم في الأيام التالية، في الشقة التي لم أدخلها، في محاولة لمشاهدة الصبي الذي له نفس العين الساهرة، أبحث في وجهه عن إشارة للاسم الذي يحمله. أشاركه آلامه، مرت أيام كثيرة ولم يعطوا له اسمًا، ومرت العديد من الصفحات ولم أعطه اسمًا، في هذا الكتاب لم أُحَدّد له اسمًا. عشتُ معهم سنوات عديدة بعد ذلك، وحتى الآن، ما زال المكان والزمان يفصلان بيننا. أنا معهم في متحف في مدينة "فلورنسا"

t.me/qurssan

لنجد أو نحاول إيجاد وجه أخي في إحدى لوحات "فيليبو ليبي"، في وجه أي ملاك له عينان ملونتان يصلح أن تحمل به فتاة إيطالية - برغم أنني لا أعرف على وجه اليقين، وربما لن أعرف أبدًا، ماذا بحق الجحيم يثبته لنا هذا الملاك.

أقف بجانب أمي عندما تحفظ - بتكتم مبالغ فيه - قطعةً من الورق في درج. في هذه الورقة القديمة البالية، والتي كتبتها بخط يدها اسم القابلة ورقم التليفون - الاسم الذي فقط بعد ذلك بوقت طويل سوف يدرك والديّ بالدليل، أنه نفس اسم أخي عندما يُختزل إلى اللقب الشائع. لم أجرؤ - تمامًا كوالدتي - على طلب هذا الرقم القديم، ولم أصل لسماع الرسالة التلقائية التي تُفيد خطأي الواضح، وأن من أطلبه غير موجود بالخدمة. أبقى على قناعة بأن كل هذا هراء، أو أعتقد أنني عندي هذه القناعة، ومع ذلك، لا أنسى أن هناك قطعة من الورق محفوظة في الدرج.

t.me/qurssan

21

وهذه صورة لأخي في أيامه أو شهوره الأولى، في أول عمره. وأمه، تلك المرأة التي ستكون أمي فيما بعد، تمسك به بالقرب من صدرها، وهي مستسلمة تمامًا: هذا ما أراه، الاندماج الملموس والمحسوس لوجودها، وتقديرًا لهذا الوجود في وسط العالم، الذي هو الصورة، وفي وسط المُعَيّن الذي يرسمه كتفيها ومرفقيها. أعتقد أنها تحاول جاهدة التّعرّف عليه. كحال كل أم تحاول أن تتعرف على ابنها في كل مرة يقف أمامها، في كل مرة تشاهده، لا يهم كم عمره، أيام أو أشهر أو سنين. أسأل نفسي، برغم أنني لا ينبغي أن أفعل، هل ستفتقد إحساس أن يمكث في رحمها، الأشهر التسعة، وأن تشعر بخفقاته وبشبعه وجوعه ويقظته ونومه وتوتر أطرافه وارتخائها في أحشائها. إن هذا الوليد عاش بالفعل عددًا لا يُحصى من التجارب الحسية التي تجهلها هي، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لكل أم، دائمًا ما تنشغل

t.me/qurssan

الكثيرات عن العمليات الداخلية لذلك الكائن الآخر، هذا الكائن الذي يعيش بداخلك وهو ليس لك؟

من الواضح أنني لن أكون قادرًا على فك رموز ما تفكر أو ما تشعر به هذه المرأة، هذا الجسد الذي ليس ملكي. فقط أشاهدها وأجتهد في معرفتها، لقد فقدتُ سنواتٍ عديدة مغلقًا على نفسي، مشغولًا في أوهام أخرى. لا أرى عينيها في الصورة، لأن الشعر يغطيها. وهي تتأمله ببسمة، إذن، وهي التي تتأمل مركز المعيّن الذي ترسمه بكتفيها ومرفقيها، تتأمل أخي، هذا الكائن الذي ليس هو أنا.

ومع ذلك، فأخي لا يتأملها. يلوي رأسه إلى الخلف في جهد كبير، ليهرب من نظرات عينيها أو ابتسامتها. أرى عينيه، تدهشني لما فيها من يقظة. أتساءل ما الذي يحاول ملاحظته، وما الذي يبحث عنه من فوق كتفيه، ما وراء الحضن الذي يرسم شكل مُعيّن والذي تحتويه أمه بداخله. يبدو غريبًا هذا الاهتمام الذي يُبديه أخي، فضول غير مألوف عنه. أتساءل، برغم أنني لا ينبغي أن أفعل، ما هي البقايا المبهمة التي تسكن جسمه أو عقله من التسعة أشهر التي عاشها في جسد آخر، ذلك الجسد الغائب عن الصورة التي أشاهدها الآن. هل تحللت تلك البقايا وذلك الاهتمام بالكامل الآن؟ ولو كانت قد تحللت، وإذا لم تعد موجودة فيه، فما هو النقص الذي لا يُوصف الذي تركته في

t.me/qurssan

جسد هذا الوليد، وكم يبعد عن ذلك الجسد الآخر الذي كان جسده يومًا ما، وعن ذلك البيت الأول الذي قوامه اللحم والحرارة والسوائل؟

هي أسئلة باطلة، أعرف هذا، أسئلة غير منطقية تفرضها الصورة أو تُوحي بها. ذلك لأن الصورة تصمت عما أجتهد في قوله، وما أصر على ترجمته من معانيها البليغة، وأستخرجه من جملها الملتوية. فقط عندما أتوقف عن رؤيتها، فقط عندما أغلق الألبوم وأدسه على الرف عند أعلى نقطة تصل إليها أصابعي، حينئذٍ أفهم أخيرًا كم تكذب الصور بِصَمْتِها.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

22

تعلمتُ من والديّ أن لكل عَرَض علامة. وأنه مرات عديدة يصرخ الجسم، خلافًا للمنطق، وخلافًا لجمود الحنجرة، وسكون اللسان. وأن الجسم، عندما يصرخ، يقترب من الصميم أكثر بكثير من العقل، لأن الجسم أكثر إلحاحًا، ولا يرى أي عقل في التعفف، ولا يُضيع الوقت في الكذب. إلا أنني تعلمت ذلك كله بعقلي، ومنذ ذلك الحين فإني قليلًا ما أشعر بالفشل في الأحاسيس، ومنذ ذلك الحين كل صرخة في الجسم تُثير تساؤلاتي.

وأتساءل كيف كان شعور والديّ عندما بدأ أخي رفض الحليب الذي يعرضانه عليه. فغني عن القول أنه لم يكن ليرضع من صدر أمي، لأنه ليس لديها ما تعطيه إياه، وليس بإمكانها إشباع رغباته، من نهم للشفاه، وتعطش اللسان إلى حاسة اللمس. في هذه اللحظة الأولى يتطلب ضمه إلى الحضن مسافة غير فاصلة، بشرة تفصلها عن البشرة الأخرى بعض الأنسجة، يد الأم تحاكي

t.me/qurssan

ثديًا بلاستيكيًا، في فمه سرنجة مطاطية باردة إلى حَدّ ما، لا تنسجم مع جسده، شيء غريب يغزوه. ومع ذلك، فقد رضع بعض الأيام بجد، وحرص على النمو بقدر ما ينبغي، وأتم بحماس الهدف من وجوده.

إن القول بأنه رفض تناول الحليب غير دقيق. فقد كان يستلقي في هذا الحضن الناعم، وكانت شفتاه ترتعشان مُعَبّرًا عن اشتياقه، ويخدش البلاستيك بأصابعه وهي لا تزال غير ماهرة، ويتوسل بعينيه إلى عينها. يرشف كل الحليب باندفاع لا جدال فيه، وعندها فقط حدث الرفض، عندها فقط وجد السبب غير الواضح تأثيرًا كبيرًا، تقيأ كلّ الحليب في دفقة واحدة قوية، طرده من جسمه كما لو كان جسمًا غريبًا، كما لو كان سُمًّا، كان انفجار كائن صغير يقاتل من أجل أنفاسه، كما لو كان يولد من جديد. وفي كل مرة كان الوضع يتكرر بمزيد من اليأس، وزاد جوع الصبي، وشغفه بالحليب، وضاق أولئك الذين أرادوا أن يُرضعوه به ذرعًا، وربما أحسوا بحزنٍ غاضب.

وعندما أتم أخي أربعين يومًا، أُجريت له عملية في النهاية. وهكذا تغير الوضع. كان التشخيص هو "ضيق بيلوري"، وهو ضيق في الفتحة بين المعدة والأمعاء يحول دون مرور الغذاء، مما يتسبب في تقلص المعدة والقيء العنيف. أقرأ الكلمات التي قالها الطبيب وأتخيّل كم الارتياح لدى والديّ إزاء الحالة، وإزاء

t.me/qurssan

التفسير المناسب للأعراض الشديدة التي لم يكن فيها سوى القليل لتقوله، وهي مشكلة نمو بسيطة يسببها الاستعداد الوراثي عند الطفل. أتصور والدي في المستشفى، كما حكى مرات مدّة، مُنحنيًا على سرير أخي، يحملق في وجهه، يتألم لمعاناته. كل هذا الجوع يسكن ذلك الجسد النحيل، كل هذا الجوع ولا يقدر أن يسد رمقه بالطعام. جوع في مثل هذا الجسم الصغير لابُدَ وأنه يُسبب ألمًا؛ ذلك الألم الذي يمكن للكبير أن يتجنبه بنهمه اليومي للطعام، والتزامه بمواعيد الوجبات، أو في نظام تقشف يمكن أن يتبعه. قبل ساعات قليلة من الجراحة عرضوا عليه رضّاعة صغيرة حتى يتمكن من إطعام المولود لو استطاع. كان اللبن الذي على وشك أن يتقيأه الطفل قليلاً بعد العلاج. تدبّر في التآمر على الطفل؛ كانوا يريدون قتله ببطء، بالجوع، بدافع عدم قبولهم لعائلته التي هي أمي وأبي. تحلى بضبط النفس، رغم ذلك، لكنه استسلم لهذه المهمة. عندما لم يتبق شيء من الحليب، عندما بدأت أظافر الصبي الصغيرة في خدش أبيه، عندما توسلت العينان الزرقاوان للعينين الزرقاوين الآخرتين، اختلطت العيون لدرجة أنه لم يعد معروفًا لمن كانت هذه أو تلك، عرف أخيرًا أن هذا الكائن كان عزيزًا عليه، وعرف أخيرًا أن هذا الابن كان ابنه.

t.me/qurssan

إذا فقد أخي وجهه في يوم من الأيام سوف أتعرف عليه عن طريق العلامة التي تركتها الجراحة، سوف أعرف جيدًا أن هذا هو أخي. رأيتُ الندبة مراتٍ عِدّة في صدره، وكانت أكبر بكثير مما يجب أن تكون عليه، وقد أخفت السنوات آثارها ومحت مكان الجرح حتى صارت خطًا باهتًا. هل كل ندبة تُعَدّ علامةً؟ أتساءل عن غير قصد. فهل تصرخ كل ندبة، أم هي ذكرى لصرخة، صرخة صامتة في الوقت المناسب؟ رأيتها مرات كثيرة، لذلك أعرفها بسهولة، لكنني لا أستطيع أن أتنبأ بما تقوله أو ما تسكت عنه، هذه الندبة.

t.me/qurssan

23

حلمتُ اليوم بوفاة أخي. أقول اليوم حتى أترك كلامي منحوتًا في صفحة الزمن، وحتى أنأى بنفسي. حلمتُ للتو بوفاة أخي وما زلت أشعر بوجود الحلم الذي يشغلني، لذلك أُعَجّل بهذه الكلمات، وأنا غارق في سوء المزاج.

كانت تفصلني بضع خطوات عن باب غرفته، وعند رؤية باب غرفته مفتوحًا، بمجرد رؤيته مفتوحًا أدركتُ أنه ليس هناك. لم أجرؤ على الدخول، لكن لم أتراجع، ناديتُ أختي، لكنها لم تُجب، ناديتُ على صديق أخي، الذي كان في غرفته في تلك الليلة القديمة، لكنه أجابني إجابات غامضة، وأخذ يُراوغني. اقتربتُ من الباب ورأيتُ سرير أخي مُرَتّبًا، كان لحافه مُعَلّقًا مثل الكفن. ربما ابتكرتُ أنا موضوع اللحاف المعَلّق مثل الكفن الآن: كان موتُه يظهر في سريره المرتّب.

t.me/qurssan

لاحظتُ كَمّ غضبي في قبضة يدي المشدودة بإحكام - كان غضبًا وليس ألمًا ذلك الذي ظهر في كف يدي من أثر أظافري. كان الغضب لسببٍ ما لا أستطيع أن أتبينه؛ غضب من نفسي لعدم إدراكي، غضب من أمي لعدم إخبارنا، غضب لتعرضي لهول الاكتشاف غير المتوقع، ورعب من الفراق الذي لا تستطيع الكلمات أن تُرَوّضه. كنتُ أتوقع وصولها وأنا مضجع على السرير؛ السرير الذي تركه أخي شاغراً فوق هذا اللحاف الذي كان هو كفنه. ثم لم يكن الأمر ألمًا أو غضبًا، لقد تحول الغضب إلى حزن وبكيت، ولكن عندما تلمستُ وجهي لم أشعر بأي بلل - لا غضب ولا ألم ولا حزن استطاعت عيناي العقيمتان أن تُعَبّر عنهم.

وطغى على الحلم التفكيرُ الأناني - أكثر من مجرد تفكير أناني، هذا ما استنتجه الآن. ففي محاولة مني لتأليف ساعاته الأخيرة، تمنيتُ لو لم يلحظ الموت الوشيك، وألا يبتئس بكثرة الأحزان، أو بمحاسبة النفس في نهاية العمر، لأني في هذا الحساب الأخير لن أستطيع أن أنقذ نفسي أبدًا. كان قد مضى تقريبًا شهر ولم أتحدث إليه، ولم أقل له شيئًا. تمنيتُ حينها ألا يستطيع قبل الموت تقييمي حتى، وألا يكون قد عرف كم كنتُ أخًا سيئًا له، وألا يكون قد لاحظ كم من الزمن هجرته.

t.me/qurssan

نم، وهو لا يزال يرقد على سريره، سيطر على تفكيري الكتاب. فإذا مات، لسببٍ ما، فلن يكون لهذا الكتاب معنى، وسوف أتركه، وأُمزق كل هذه الصفحات الغامضة، وأُلقي بها في مياه صافية لأي نهر من الأنهار، أو أحرقها في أي موقد يضج بالنار - أو افعل به أي شيء مبتذل يشفي غليلي. كما لو كان هذا الكتاب رسالةً طويلةً له، أو خطابًا لن يقرأه أبدًا (وإذا كان الكتاب رسالةً طويلةً له، وهذا هو ما أفكر فيه الآن، أود أن أكتبه بطريقةٍ أفضل، أود أن أجعله أكثر صدقًا، وأكثر حساسية). لكني أدركتُ أن الكتاب ليس رسالةً مطولةً له، وأنا مستلقي في سريري، لا أعرف إذا كنتُ مستيقظًا أو نائمًا. وعدتُ أدندن بترانيم لا أحسب أن أحدًا يريد أن يسمعها، بأني أحتاج إلى سرد قصته، وأن قصته، حتى لو مات، يجب أن تُحكى.

لابُدَ أنني كنتُ مستلقيًا في سريري، وقبضتاي مفتوحتان، عندما فاجأني الشعور الأخير، خليط بين الحرية والواجب الذي يستلزم الوفاء: إذا كانت قصته يجب أن تُحكى، وإذا كان بإمكاني الآن سردها بكل التفاصيل التي كنتُ أخفيها احترامًا له؛ فإنه يلزمني الحديث عن علاقته الشائكة مع الطعام، ثم يلزمني الحديث عن كيف أنه هجر جسده، وكيف أنه لم يتغذى، وكيف كان هزيلاً في أيامه الأخيرة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

24

لم يكن هزيلاً، ولم تكن تلك هي أيامه الأخيرة. كانت هذه النبرة الحزينة هي التي تُمَيّز محادثاتنا في غيابه، أو عندما يُغلِق على نفسه باب غرفته ويرفض كل نداء عليه، ويرفض حتى الطبق الذي نُقدّمه له عند الباب، وبعد ذلك استسلمنا دون مواجهته. لقد صار نحيفًا جدًّا، هذا ما اعتقدناه أو تخوّفنا منه، ونحن جالسين أربعتنا حول المائدة، ونُعَلّق على غيابه بكلمات الاحتضار.

كان نحيفًا جدّا ولم يكن لهذا النحافة أي معنى؛ فليس هناك تاريخ مرضي ولا سبب واضح. وعبثًا حاولنا البحث في الذاكرة عن دليل، أو إشارة لفهم هذه الحالة وتأطير هذه العملية التدريجية غير المحسوسة. منذ متى تحوّل رفضه للمشاركة في الطعام على المائدة إلى رفض للطعام؟ منذ متى لم يعد يرغب في الحفاظ على قوته وحزمه واحترامه وتغذيته التي تمده بالقوة التي كانت تُمَيّزه؟ متى قرر ترك التدريبات، والتقليل من شغفه بأي رياضة

t.me/qurssan

ليصل لحد فتور الهمة، وأن يكتفي بالمشاهدة السلبية؟ في أي صباح تعيس استيقظ، مصممًا على كبح شهيته فجأةً، وأن يمارس ضبط النفس ويُدَرّب جسده على الزهد الممنهج؟

كنا نبالغ، بالطبع، كما أنني ما زلت أبالغ الآن، مُدركًا أن الكلمات تشوه، وأن الأسئلة تُؤكد ما تسأل عنه. لا أريد، ولا يمكنني أن أجعل من أخي فنانًا في الجوع. لا أريدُ وصف وجهٍ شاحب أو أضلاع بارزة أو ندبة غائرة، كما لو كنتُ أبتكر شخصية ما لكتاب جديد، لأصيغ مشهدًا آخر مذهلًا أو حزينًا. لا أريدُ ذلك، ولا يمكنني عرضه في قفص تكون قضبانه هذه الكلمات، لنيل إعجاب جمهور يشتاق إلى الشعور، كي أغذي التعاطف عنده، وأغذي صفة الإيثار عنده.

ربما هذا ما كنا نفعلُ أثناء تناولنا الطعام، أثناء مناقشة وضع أخي الصعب للغاية. والوضع الصعب، كما عرفناه، لم تكن نحافةً شديدةً، بقدر ما كان قصورًا ذاتيًا لهذا الصبي الذي أصبح مطويًا على نفسه. كنا نُعَاني، بالتأكيد، وكان الكرب على وجه والديّ واضحًا - الكرب الذي تعلمت أختي كيف تُعَبّر عنه بالفعل، والذي قد ينعكس في وجهي، المراهق أو البالغ، ذلك الكرب الذي ربما شعرتُ أنا به كذلك. لكنني أظن أننا لم نبحث عن وسيلة للوصول إليه حقًا، ونعانق هاتين الكتفين النحيلتين، ونضع أيدينا على رقبته، بحنان، بعناية، وأن نشير بالأصابع تجاه

t.me/qurssan

الخطوة التالية، وأن نُوَجّهه خارج الغرفة، لينغمس في الحياة. اخشى أن نقتصر على مراقبة الحالة والتفكير في الأشياء الواضحة، وتكرار أسئلة في غير محلها. أظن أننا لن نمر، وهو وحيد في غرفته، أمام اللوحة المشتتة. أخشى أننا لن نمر كمتفرجين سلبيين متحمسين لرياضةٍ ما، أو لمشهدٍ حنون آخر.

كيف نصل إلى حقيقة ذلك الوضع الصعب حقًّا، وكيف نصل إلى تلك العقدة إذا تم رفض الكثير من المفاهيم، وإذا قوطعت الأفكار؟ في أحد الأيام سمعتُ من مُدَرّسة جامعية، انحرفت عن النقاش في الأدب، الذي كانت تُدَرّسه، أنه من الشائع أن يكون هناك صراع داخل الشخص المُتَبَنّى ويكون التعبير عنه بطريقة الخلل في التغذية. في كثير من الأحيان، يعني تناول الطعام للطفل المُتَبَنّى الاندماج، وأنه إذا اكتسب وزنًا يكون قد شغل الجزء الخاص به في المنزل، وتبوأ مكانه من الأُسرة. وهكذا يصبح الشوقُ البسيط للطعام جوعًا مبالغًا فيه. فكرتُ في أخي بالطبع. فكرتُ في أخي وما يشير إليه ذلك التحول المأساوي الكبير، ولكني عندما وصلت إلى المنزل، كان لديّ رغبة في نقاش الأمر مع والديّ. لكنه كان نقاشًا عديم الفائدة لأني كنتُ أتوقع نتيجة الحوار مُسبقًا، كنا نرفض معًا، بساطة التفسير، كلمة كلمة، وآليته، وتعميمه. كنا نُكَرّر معًا أن الطفل بالتبني لا يمكن اختزاله لهذه الميزة البدائية، ولا يمكن أن يصبح شخصيةً نمطيةً

t.me/qurssan

محددةً. لا أعرف لماذا لا أسكت في هذه الصفحات عما سكتُ عنه ذلك اليوم. أعتقد أننا سنكون على صواب ذاك الوقت، وأعتقد أنني مخطئ الآن.

t.me/qurssan

25

ولكن هناك أحزان لا تتلاشى أمام المنطق، وهناك آلام لا يُبَالغ أصحابُها فيها. وهناك قصص لا تُؤَلف على مائدة الطعام، بين مضغات ورشفات، أثناء أي محادثات هزلية، قصص تأبى الاقتراب من الطيش وقلة الإحساس، والتي لا تتناسب مع اجترار العبارات اليومية العادية. هناك حالات لا تسكن سطح الذاكرة وهي، مع ذلك، لا تُنسى، ولا يمكن أن تقمعها. في فضاء الألم كل نسيان وارد، وهناك بيت من الشعر عن هذه الأمور غير المؤكدة، ولكن الأبيات يجانبها الصواب أحيانًا:

في بعض الأحيان عندما يصير الفضاء ألمًا، لا يوجد مكان إلا للصمت.

وليس الصمتُ صمتُ غياب كلمة، بل هو صمت الغياب بعينه.

لا أذكر متى كانت أول مرة سمعتُ فيها اسم "مارتا بريا". ربما لم أدرك الوزن الحقيقي لذلك الاسم؛ لأني كنتُ صغيرًا على فهم ما يعنيه هذا الاسم. ولفترةٍ من الوقت كان يُمَثّل لي مجرد اسم

t.me/qurssan

قديم لصديقة لأمي لم تكن تتردد على منزلنا، الذي كانت الناس تبتعد عنه دونما سبب. وكانت صدفة عندما سمعتُ تعليقًا لأختي تُقَلّدها فيه بلهجةٍ ثقيلة، حينها اكتشفتُ أنها ليست صديقة مثل الأُخريات، أبعدها الزمان، أو المنفى الذي جئنا إليه، أو بُعْد التباعد التدريجي للخطابات حتى لم يعد هناك أي اتصال. وأدركتُ تقريبًا أنه ليس هناك خطابات لهذه الصديقة، ولم تكن هناك رسائل منها على الإطلاق، وأن هناك علامة حمراء فوق اسمها: "مارتا بربا"، مختفية قسريًا.

كانت زميلة أمي في مستشفى "لانوس". كان مستشفى يفخر به الجميع. كان مستعمرة للنضال ضد الأمراض العقلية في البلاد. كان واقعًا ورمزًا لهذا النضال الذي كانتا تخوضانه معًا بحماس. قبل ذلك بعام، كان مدير الطب النفسي قد استُبعِد، بناءً على أوامر غامضة وغير قابلة للنقاش، وفي عملية داخلية تم اختيار أمي لتولي منصبه، بينما تولّت "مارتا" رئاسة قسم المراهقين. في تلك السنة تحوّلت المودة التي جمعت بينهما في النهاية إلى صداقة. كانتا تذهبان سويًا على طول الطريق إلى مشفى "لانوس"، وتعودان معًا، تتبادلان الأسرار وكان بينهما انسجام كبير. في قصة ولادة أخي كان اسمها يُذكرُ دائمًا: كانت "مارتا" أول من زاره في المنزل.

t.me/qurssan

آخر مرة سمعت فيها أمي صوتها كان في اجتماع أثناء مناقشة بعض القضايا البسيطة، وبعد دقائق قليلة، قاطعها شخص ما ودعاها لكشف سريع. كان الصراخ غير المتوقع منها يعبر القاعات، ويجتاح الجدران، يضرب طبلة أذن وذاكرة أولئك الذين كانوا ينتظرون عودتها. ركضت أمي إلى مدخل المستشفى، وكانت لا تزال تشهد الوحشية التي كانوا يدفعون بها صديقتها صوب سيارة بدون لوحات، ولا يزال مشهد مغادرة السيارة بسرعة كبيرة يتكرر مرات عديدة أمام عينيها. يمكن أن تكون مجموعة الصور الذهنية عندنا محدودة: فمع كل اختفاء، كل عملية اختطاف يتم الإبلاغ عنها، ترى والدتي، أو تعتقد أنها ترى، هذه السيارة نفسها وهي تغادر فجأةً وبسرعةٍ رهيبة، وتختفي عند الناصية، وتحتك إطاراتها بالأسفلت.

لا أعرف كم ساعة مرت حتى كانت أمي تجلس في صالة منزل عائلة "بربا"، صالة فخمة تذخر بأجواء أرستقراطية، مُغْرِبَةً عن استيائها لما حدث لأختهم "مارتا"، وطلبت منهم اتخاذ إجراء، فعل أي شيء، وسمعت منهم الإجابة التي لم تتخيلها، لقد تورطت مع أناس ما كان ينبغي لها الاحتكاك بهم، ولا الاختلاط معهم، وهي تدفع الثمن الآن. أنا فقط نادمة على حزن أبينا وخيبة أمله في ابنته التي أحسن تربيتها، قالت ذلك المرأة الشابة بشكل تلقائي،

t.me/qurssan

وسخرية غير محسوبة تقريبًا، وما كان من أمي إلا أن أخفت اشمئزازها وكتمت حزنها الشديد على صديقتها.

لا أدري كم يوم مر حتى كانت في مكتب رئيس الشرطة الذي كان صديقًا قديمًا لصهرها. كان صديق طفولة عمي الذي كان يعيش في منطقة بين النهرين. تتوسل إليه وهو يبتسم، مع لفتة لضبط النفس ووجه ودود. ابتسم وحاول تهدئتها، ولم يستغرق الأمر سوى لحظة لمعرفة ما في الأمر. عندما عاد، أصبح وجهه عبوسًا لا يهدأ واتخذ صوته نبرةً جادةً: ما هي علاقاتك مع هذه المرأة التي تُدعى "مارتا"؟ إلى أي مدى تعرفها السيدة؟ هل كنتِ تترددين في كثير من الأحيان على نفس الأماكن والأشخاص التي كانت تزورهم؟ تنبهت أمي إلى التحوّل في نبرته، ووجدت نفسها مُجبرةً على إنكار الصداقة، وأنها هنا فقط من الناحية المهنية، وأنها جاءت كمديرة مستشفى قلقة بشأن زميلتها بالعمل. حسناً، نصحها الرجل وهو يدفعها بالفعل نحو الباب، انسي اسمها ولا تسألي عنها مرةً أخرى أبدًا.

ولم تنس أمي اسمها. لم تنساه أبدًا، رغم أن المنفى وَسّعَ الهوة بينهما، وفي غضون بضعة أشهر فصلت الحدود القاسية بينهما. ولم تقبل أمي بغيابها، وتشبثت بأي أخبار غامضة تصل إليها، عن طريق امرأة كانت في الزنزانة نفسها مع "مارتا"، تتحدث عن شجاعتها، وصلابة موقفها، أو امرأة كانت موجودة معها وهي على

t.me/qurssan

قيد الحياة ولديها إجابات عن كل ما تسأل عنه. لم تتوقف أمي عن السؤال عنها، لكن الصمت أصبح أكثر ألفة من الكلمات، واحتل الغياب تدريجيًا الفضاء الذي كانت تشغله الصديقة، وسرق اسمها، وتَشوّهت آثارها في الذاكرة.

فقط عندما تلقت تلك الرسالة، بعد أربعة وثلاثين عامًا، الرسالة التي حَوّلت "مارتا بربا" إلى "مارثا ماريا بربا"، ضحية لإرهاب الدولة تحت حكم الديكتاتورية المدنية والعسكرية، طبيبة نفسية شابة والتي أوضحت رفاتها أنها أُغتيلت في غرة يونيو للعام 1977م، بعد ستين يومًا من اختطافها من المستشفى؛ فقط عندها، استطاعت أمي كنس الأنقاض المتكلسة لتلك المأساة من داخلها، واستطاعت لمسها أخيرًا، وتحريكها، واستطاعت كتابة الخطاب الذي ألقته في حفل تأبينها بصمت الأنقاض، وملامحها المشوّهة. ومن صفحات هذا الخطاب عرفتُ شيئًا آخر وهو فظاعة نظام يقتل الأبرياء وبالإضافة إلى القتل يقضي على المحيطين بضحاياه مباشرةً، في دوائر لا حصر لها من الضحايا الآخرين المجهولين، حداد معطل، وقصص لم تُحكَى - وفظاعة النظام الذي يقضي أيضًا على قصص موت ضحاياه.

لم أكن أعرف "مارتا بربا"، ولم يُؤثّر في نفسي غيابها. لكن غيابها عشش في منزلنا، وعشش في دوائر لا حصر لها من المنازل الأخرى التي كانت مجهولة - غياب الكثير من أمثال "مارتا"، مختلفون في

t.me/qurssan

رفاتهم المفقودة، وفي ملامحهم المشوّهة، وفي الأنقاض الصامتة مختلفون في كل شيء، لكنهم يتفقون في الحزن نفسه الذي لا يستسلم، في الثرثرة التي تطرأ على المائدة، في الألم الذي لا يطيقه أحد. كان اسم "مارتا بربا" في منزلنا رمزًا للمحرقة. هولوكوست أخرى، واحدة من بين العديد من المحارق، مألوفة جدًّا، وقريبة جدًّا.

t.me/qurssan

26

يجب على المرء أن يتعلم المقاومة. لا يذهب ولا يبقى، فقط يتعلم المقاومة. أُفكّر في هذه الأبيات التي لم يكن بوسع أبي أن يُفكّر بها، أبيات دُوّنت في ذلك الوقت، أبيات كان يفتقر إليها. أفكّر في حال والدي في آخر اجتماع سري استطاع أن يحضره، وهو هادئ بين المناضلين المتحمسين، شارد من صخب الأصوات. نقاوم. وهل من المقاومة أن نقبل المصائب بشجاعة، وأن نصمت عن التدمير اليومي، ونقبل بدمار القريبين منا؟ وهل تكون المقاومة بتحمل سقوط الآخرين وأنت واقف، وإلى متى، حتى تنهار السيقان؟ هل تعني المقاومة النضال برغم الهزيمة الواضحة، والصراخ بالرغم من بحة الصوت، والإصرار برغم وهن الإرادة؟ يجب على المرء أن يتعلم كيف يقاوم، لكن المقاومة لا تعني أن نستسلم أبدًا لقدر معلوم، ولا تكون بالخضوع لمستقبل لا مفر منه. ألا يعني تعلّم المقاومة معرفة كيف تسأل نفسك؟

t.me/qurssan

كان هادئًا بين المناضلين المتحمسين، شاردًا من صخب الأصوات، وأسلم نفسه للسياسة التي توجد دائمًا في الانطواء على النفس والتأمل. لا يوجد في داخله أي دعوة لمعارك كلامية، ولا يوجد في نفسه مجال للحماس والشجاعة. أين آفاق المدينة الفاضلة الآن؟ أين الاعتبارات الأيديولوجية؟ كم من المناقشات المهمة انتهت في مناقشة الآلام، وفي تعداد الضحايا؟ كيف أن أحدًا لم يلحظ أنهم لم يعودوا يناقشون الأساليب الجديدة تجاه المجتمع الجديد الذي يتعرض لسوء المعاملة، وكيف لم يلحظوا أن المكان أصبح عيادة للفشل؟ كيف لم يدركوا أن السياسة تم تقليصها، في هذه الاجتماعات العاصفة، إلى مجرد صراخ مؤلم؟

لم يكن الذهاب ولا البقاء، ولا تعلّم المقاومة، هو ما يشغل فكره، لكن عينيه خانتاه وانحرفتا لتنظرا في حيرة بين الساعة والباب. سواء كانوا متحمسين أو مجردين، كانوا جميعًا يخشون التهديد نفسه. في الدائرة الواسعة التي شَكّلوها تحت الضوء الخافت للنوافذ المغلقة، بقي كرسي واحد شاغر. مر الوقت، وتسارعت الدقائق، وغاب من وَجّه لهم الدعوة لحضور الاجتماع، لم يصل حتى يُعيد لليوم الحد الأدنى من الهدوء. وعلى وتيرة بندول الساعة الذي كان أبي مُحدقًا فيه، أكمل الخوف تلك الدائرة غير المكتملة، وكل خمس دقائق كان يظهر وجه جديد، وفي ساعة زمن كانت الغرفة قد احتُلّت بالفعل. هل تم

t.me/qurssan

القبضُ على من دعاهم للاجتماع؟ وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان العسكريون قد استولوا على كل شيء الآن، فكم من الوقت يمكن أن ينتظروا هناك، شاردين، يجهلون المصائب التي توارثتهم؟ متى يجب أن تبدأ العملية التي تأخرت طويلاً؟ تعلَم كيف تقاوم، نعم، ربما يكون والدي قد فَكّر في ذلك، واستسلم قدر استطاعته لسياسته بالانطواء على النفس والتأمل. الآن، يبرز إذًا سؤال أكثر إلحاحًا، هل يبقى في البلاد أم يرحل؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

27

عليكم أن ترحلوا، هذا ما قاله بصوتٍ قاطع، صوت يبدو من حماسه أنه يُشير إلى وجود خطر شديد، صوت يبدو من حزمه أنه يريد إخفاء ضعفه. وأن الشخص الذي كان يؤكد عليه يتمتع بسلطة أولئك الذين يعرفون، أولئك الذين يرون الوجه القبيح للعالم العاري من الأقنعة، أولئك الذين يشعرون بقسوة العالم منحوتة في اللحم المترهل. كان "فالنتين باربمبليت" هو الذي قال هذه الجملة؛ ذلك الطبيب النفسي الذي خلفته أمي في إدارة المستشفى، وكان قد اعتُقِل مدة عام دون سبب وجيه، وظل مفقودًا لأكثر من شهر، وبمعزل عن العالم الخارجي حتى تلك اللحظة التي استدعاهم فيها. كان الرجل الذي يُحَدّق في وجوههم نحيفًا شاحب الوجه ويُكَلّمهم بأقصى درجات الجدية، كانت يداه ترتعشان وشفتاه شاحبتان. لابُدّ أن تغادروا، إن الدور آتٍ

t.me/qurssan

عليكم، كانت تلك كلماته المتوترة التي تقطع مثل السكين هدوء الفجر المزيف.

وبعد ذلك، في لحظةٍ غير متوقعة، في حماسة صوت لم يستطع أحد إسكاته، في جملتين بسيطتين مختصرتين، أكدت العديد من الشكوك التي راودتهما وحسمت أي تردد لديهما، وأي استفسار غامض. فلم يعد البقاء خيارًا، والبقاء لأن المدينة مدينتهما وليست مدينة الجلادين، ولأنه في تلك الشوارع أمضوا حياتهما، وفي تلك الميادين كان التاريخ يتحول، لا شيء من ذلك يتصف الآن بالحكمة. كان الرحيل هو ما يجب عليهما فعله، حتى دون المرور بالمنزل. يرحلان هما وطفلهما، فقط ثلاثتهم وما خَفّ حمله في حقائب اليد، ملابسهم، حقيبة تُحمل على الظهر وفيها الرضّاعة وحفنة من حفاضات الأطفال. نرحل وننسى الهزيمة، نرحل لنتفادى الكارثة، ونحافظ على ما تبقى لنا، كثيرًا كان أم قليلًا، كالحياة التي كانت تُسلَبُ منهما في كل يوم. الرحيل لإنقاذ تلك الحياة الأخرى أيضًا التي كانت بالكاد تبدأ، وحماية الولد الملفوف بين يديها، كان الحفاظ على ابنها هو كل ما تفكر فيه أمي وهي تعبر المدينة في صمت مطلق، يقطعه وقع صوت الحذاء المنتظم على الرصيف.

في صباح اليوم التالي كانا بالفعل في سيارة خالي، واعتمدا على سِعَة اتصالاتهما، فاشتريا تذكرتي طيران للتمويه فقط، ولتضليل

t.me/qurssan

أي شخص ينصب كمينًا لهما، وامتلأت حقيبة السيارة بحقيبتي سفر مليئتين بما كانت خالتي قد جمعته من الشقة المهجورة. ولا أعرف الكثير عن هذه الرحلة، هناك شيء أجهله عنها، ليس عندي أي فكرة عما تحدثا فيه - ولا أدري ما إذا كانت الرحلة حزينة أم يائسة، أو إذا كانا قد ناقشا بالفعل في لحظة هدوء، الترحاب الذي ستقدمه لهما البرازيل، لأولئك الذين لم يخططا حتى للبقاء.

أتصور السيارة وهي تنجرف عبر السهل المشمس، ويبدو الأمر كأن المشهد يتباعد، كما لو كنت أراه من أعلى، منظر طبيعي لسيارة مسرعة. استفز وعيي أنني لم أكن هناك، وأنه لا يمكنني أن أكون هناك، وأن هذه الرحلة المسرعة هي حدث يخص جزءًا قديمًا من قصة حياتي الخاصة، حدث جوهري لسبب ما لا أستطيع شرحه جيدًا، أو أنه ليس ذا صِلة.

أعلمُ أنهم عبروا الحدود مع أوروجواي دون صعوبة كبيرة، وأنهم وَدّعوا الآخرين بعناقٍ سريع بَدَا غير عادي. وفي غضون ساعات كان الثلاثة على متن طائرة سوف تقلهم من "مونتيفيديو" إلى "ساو باولو". وشعرا بخوف عظيم عندما سمعا صوت الطيار، مُعلنًا للركاب أنه سيكون هناك تغيير طفيف في المسار، وأنهم سوف يتوقفون قليلاً في مطار بوينس آيرس، أحيا ذلك في خيال والدي بعض الصور القديمة المروعة، والزيارات المفاجئة،

t.me/qurssan

والأصفاد، والتحقيقات. لكن، وبعد ضجة في الطائرة، تم استبعاد هذا الاحتمال، وشعر والدي براحةٍ كبيرة، كما لو كان عاد ليتنفس في النهاية من جديد. هناك فَهِمَ، أو بدأ يفهم، أن كل شيء لم يُختزل في الأحياء القليلة التي سكنها في وقتٍ ما وقد سيطر عليهما الرعب والذعر. بدأ يفهم أن العالم كان أوسع بكثير، وأن به سهولًا واسعةً وآفاقًا لانهائية، مادية أو تخيلية، وأنه سيكون للكفاح معنى من أجل الحفاظ على أُسرته دائمًا، وفي كل مكان. وهناك استنتج، أو أراد أن يستنتج أن الهزيمة كانت مؤقتة، فقط كانت هزيمة آنية.

ليس من الإنصاف القول بأن والديّ لم يُعَانيا من المنفى، وأنهما لم يعُانيا من التعسف، ومن خلافاتهما، وحنينهما، ومن محاولة نسيان أشياء غير مرغوب فيها. ومع ذلك، أشعر أنهما عاشا بشكلٍ ما مثل هذا الصباح وهذا المساء، مثل منظر طبيعي سلمي، مثل سهل مشمس، يعمه الهدوء الذي يستحقانه بعد ليلة صاخبة. لا أعتقد أنني أُبالغ إذا قلتُ إن السنوات التالية كانت امتدادًا لذلك اليوم، يوم يملؤه التوتر والهدوء في الوقت نفسه - برغم أنه في بعض الأحيان كنا نرجع إلى تلك الليلة الصاخبة، برغم أنني أحاول بجد - من يدري لماذا - أن أتعافى منها.

ولا أنسى ليلةً أخرى، في مدينةٍ بعيدةٍ من هذا العالم الذي أصبح شاسعًا، في سنة بعيدة عن سنة الهروب، قريبة من هذا

t.me/qurssan

العام الذي أحكي فيه الحكاية. كنتُ في "برشلونة" مع والديّ، وتناولنا العشاء مع "فالنتين بارمبليت"؛ حيث الزجاجات تتلألأ على صوت الأقداح وهي تتراقص. وبين ابتسامة وأخرى من "فالنتين"، بين طرفة وأخرى يحكيها، وفجأةً تكدر وجهه، وغضب للحظة، ثم ابتعد عن المائدة ورفع سرواله. ليظهر كاحله الأيمن متورمًا، ملتهبًا، مشوّهًا: هل تَرنَ كاحلي هذا؟ سأل أمي. وأضاف: لقد فعلوا بي ذلك بينما كانوا يستجوبوني عنك.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

28

كان اليوم كله غريبًا. تمشي في شارع غير مألوف، ثم يُسلمك الشارع بشكلٍ مفاجئ إلى شارع آخر، دون علامة فارقة، ثم يتخذ اسمًا آخر، وتجد نفسك تائهًا في ما يُفترض أن يكون الحي الخاص بك. في يوم واحد يصير كل شيء غريبًا. تعثر أخيرًا على مقهى، رغم أنك لا ترغب في تناول القهوة وتود الجلوس هناك فقط؛ يجلب لك الجرسون الفنجان ويبدو أنه ينتظر مغادرتك بشيءٍ من القلق؛ لأن تناول القهوة هناك له معنى محدد لا يشمل البقاء ساعات طويلة في المقهى. في البداية كنا مندهشين بعض الشيء، قال ذلك والديّ، وأنا أفهمهما لكن بالعكس، لأنني اشتقتُ كثيرًا إلى الشوارع المستقيمة، وإلى تناول القهوة الذي يستغرق عصر يوم بأكمله.

كان اليوم كله صدفة. هو في البرازيل فقط ربثما يغادر إلى المكسيك لاستئناف المعركة بجانب رفاقه الآخرين المنفيين. هي في

t.me/qurssan

البرازيل فقط ربثما تغادر إلى إسبانيا، لاستئناف الحياة هناك ومواصلة العديد من الخطط التي تأخرت بالفعل. لأن ما لا يستطيعون اتخاذ قرار بشأنه هو أنهم سيبقون أم لا، فالأشهر تمتد مثل الشوارع المتعرجة، وطعم القهوة يحلو لهما. ربما في يوم من الأيام، تُقدّم معلومة إلى أحدهما وهو يمر أمامك وتكتشف أنه يعرف اسم الشارع الذي يقف فيه، وأن هذا المكان يمكن أن يكون الحي الذي يعيش فيه، وأن ما كان غريبًا عنه أصبح خاصًّا به، أو كاد. لا تهتم حتى إذا كان الرجل لا يفهم لهجتك، أنت تُوَجّهه وهو لا يزال تائهًا، يبتسم لك ابتسامة لطيفة - هنا تقبع الأحزان، هذا واضح، وهنا ديكتاتورية مثل هناك، هنا ينتشر البؤس في كل زاوية فقيرة، ورغم ذلك تجد أناسًا يبتسمون في كل مكان.

تبتسمُ وتعتقد أنك تفهم هؤلاء الناس، برغم أنك لا تفهم شيئًا عنهم، شيئًا يخصهم، شيئًا حقيقيًا عن فرحتهم، عن جمالهم، هذا الجمال الغريب الذي ربما في يوم من الأيام يمكنك تقليده - من يدري، ربما بمثل هذه الخفة. أنت تبتسم وتتساءل إذا كان الجمال لن يكون عنك غريبًا، وإذا كان الفرح لن يكون عنك غريبًا، شيء لا يمكن لأحد التعرف عليه في نفسه، شيء زائل ينطبع فقط على وجوه الآخرين، ولا ينطبع على وجهك أبدًا. أنت تتساءل، في ذلك اليوم، لا عَمّا إذا كنت في يوم ما ستكون قادرًا

t.me/qurssan

على جعل الجمال شيئًا أصيلًا فيك، وجعل الفرح شيئًا يلازمك. ولكن عَمّا إذا كنت يومًا ما قادرًا على أن تكون شخصًا آخر، وأن تصبح غريبًا كذلك.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

29

ولكن جاء اليوم الذي لم يعرف فيه البرازيليون الابتسام، اليوم الذي غطوا فيه وجوههم بأيديهم، اليوم الذي تحوّل فيه اللطف المعتاد إلى غضب واضح جدًا. من الصعب العثور على النغمة المناسبة، وفهم أهمية أشياء تبدو غير مهمة، واحترام المعاناة المشروعة التي يمكن أن تكون في موضوع تافه، وخاصةً عندما تخص الجموع وتشترك فيها الجماعات. يصعب تقدير أهمية موضوع ليس له معنى عندما يتم إسقاط الحواس المختلفة عليه، وعندما تتبلور فيه الكثير من المعاني. أحيانًا لا يتطلب التحوّل من أكثر الظروف ابتذالًا إلى الشعور بالمأساة سوى انزلاق خفيف، أو خطأ طفيف.

حدثت في ذلك اليوم ستة إخفاقات طفيفة. مراوغة ملعوبة للاعب الدفاع، هدّاف بالرأس غير مراقب، تمريرات سهلة داخل المنطقة، خط وسط مدافع لم يقفز في الوقت المناسب، ولامبالاة

t.me/qurssan

من حارس المرمى، ومرة أخرى لا مبالاة من حارس المرمى، عدم اهتمامه الواضح في الوصول إلى الكرة، وإيقاف أي هجوم. تسبب كل ذلك في هزيمة لا تُصَدَّق من الأرجنتين للبيرو 6 - صفر، وكانت البرازيل هي الضحية. فقد خرجت من هذا الدور برغم أنها لم تُهزم، وبرغم أنها لم تكن تستحق هذا الحظ السيئ. أم لم يكن الموضوع حظًّا سيئًا؟ كان الجميع مجتمعون في منزل واحد: المنفيون الأرجنتينيون والبرازيليون المتعاطفون، صاروا ينظرون الآن إلى بعضهم البعض بشك، وأخفوا عدوانهم بالكاد، أصبحت حواراتهم محتدة الآن، وتبادلوا كلمات وقحة. فجأةً أصبح الأحد عشر رجلاً في الملعب ممثلين محترمين لوطن بلا شخصية، لبلد لا يستحق، المباراة كانت عملية احتيال، قذارة، تم شراء حارس المرمى، وشارك كل واحد من الأرجنتينيين الذين كانوا حاضرين بشكل غريب، وكان له نصيب عادل من المسؤولية، كل منهم ساهم بشيء وكان شريكًا بطريقةٍ أو بأخرى.

أصبحوا متواطئين مع وطن بلا طابع كان يطاردهم. لقد تحوّلوا جميعاً. وبرغم صدق مشاعرهم إلا أن حججهم كانت غير منطقية. نعم، رفضوا ارتداء قميص المنتخب، وكبحوا جماح أنفسهم كي لا تتعالى صرخاتهم، واستهجنوا بإصرار كل مسؤول ظهر على الشاشة، وكل بدلة رسمية متألقة كانت الكاميرات تُرَكّز عليها. منذ بداية نهائيات كأس العالم، أدانوا المغالطة، وكانوا

t.me/qurssan

متحفزين ضد الفيفا لرعايتها لهذا الهراء، ولإعطائها النظام فرصة للتفاخر بإنجازاته أمام العالم، وأن يشدو بأغانيه الكاذبة تمجيداً للحرية، والاحتفال بمبانيه، سواء السجون أو الملاعب. نعم لقد كَرّسوا أنفسهم لكل هذا السيل من الانتقادات، ولا يزالوا مكرسين، يومئون بدفاعات حماسية، ولكنهم هل كانوا حقًّا يعتقدون فيما يقولون؟ هل هذه الأفعال كانت كافية؟ ألا يساهمون بشيء، كما جرى اتهامهم، ألن يكونوا كذلك متواطئين بطريقةٍ ما، ببساطة لأنهم غائبون، لمجرد وجودهم في حيّ جديد، ولأنهم يتلذذون بطعم القهوة، لمجرد تجمعهم، فرحين، سُذّج، لمشاهدة لعبة كرة قدم؟ هم الآن لا يتكلمون، مُطأطئي الرؤوس مثل الآخرين، يعانون الهزيمة مثلهم، لكنها هزيمة من نوع آخر، فهم يشعرون بالذنب كما لم يشعروا من قبل، ذنب كذنب أولئك الذين أنقذتهم لعبة الكرة.

لستُ متأكدًا، ربما يكون هذا اجتهادًا في التظاهر، ألحظ هذا من النغمة التي تمتلئ ألماً: تلك النغمة التي فاجأتني بعد إعادة صياغة هذه الحلقات. ويبقى من القصة في هذه الليلة تلك الطرفة المضحكة، عندما تتحول المأساة إلى مهزلة. عندما كان أخي يعبر فضاء الغرفة ويركل الكرة بكل ما أُوتيت ساقاه النحيفتان من قوة، ويصرخ بحماس، بلهجة أرجنتينية: هدف

t.me/qurssan

"كيمبيس"، مما ترك عندنا شَكًا لا يزول في من الذي علّمه تلك الصرخة الوطنية.

t.me/qurssan

30

هناك شيء لا أريد أن أسألكم عنه. هناك العديد من الأشياء التي لا أريد أن أسأل مرةً أخرى عنها، والتي أُفضل أن أستحضرها من الكلمات المحفوظة في ظلمات الذاكرة؛ كلمات نسيتها لكن عقلي تكفل بتحويلها إلى مفاهيم غامضة، وصور غير واضحة المعالم، وانطباعات غير مؤكدة. كنتُ أحاول إقامة بناء هذه القصة بهذه الأنقاض غير المادية، على أُسس تحت الأرض غير مستقرة للغاية. ومع ذلك فهناك شيء، لا أعرفه حتى داخل حدود هذا الموقف الخطر، شيء لم يحكوا لي عنه أبدًا، لكنني برغم ذلك لا أريد أو لا أستطيع أن أسألكم عنه.

أتصور والديّ، في ذلك الصباح الذي لم أشهده، في الشقة التي لم أدخلها أبدًا، في مبنى ألقيت فقط نظرة على واجهته. أتخيّل والديّ حول المائدة منكفئين على الصحيفة. التي لم يكن من المعتاد أن تذكر أخبارًا عن الأرجنتين. لم يكن من الشائع على

t.me/qurssan

الإطلاق أن تنتقد وسائل الإعلام الرسمية الجرائم الخطيرة، الجرائم التي تُرتكب ضد الإنسانية؛ رجال ونساء يُختطفون بشكل جماعي ويُعذبون، ويختفون. كل طقوس القمع تتحول إلى مجرد تعداد موجز. كان ذلك صباح يوم من أيام الأحد، في شهر أغسطس لعام 1978م. في تلك الفترة كانت جميع الجرائم تقريبًا معروفةً، لكنها كانت تصل للعامة بطرق أكثر تعقيدًا؛ مثل الشائعات التي تتضاعف في كل لقاء بين المنفيين، والخبرات الشخصية القاسية، وكان الكثير منها لم يُسمع به بعد. كان من الغريب أن نرى هذا الكلام مكتوبًا في صحيفة، على الرغم من كونه سريًا، في بلد بعيد، بلغة لم يتقنها القراء. سيطر عليهما شعور غامض، فقد تم شجب الإرهاب في نهاية الأمر، وهناك حاول البعض أن يستحق الوجود، ولكن تم تأكيد الشائعات المستمرة أيضًا، وأصبح خبرًا ملموسًا ما لم يكن ملموسًا في تجربتهم الخاصة. في أسفل هذه الصفحة، من الجريدة التي لم أقرأها، كان هناك بيان موجز مكتوب بأحرف صغيرة بحيث يمر دون أن يلحظه أحد من القراء. كان البيان موقعًا من "أمهات ميدان مايو"، أو بالأحرى فصيل من أمهات لم يُسمع أي شيء عنه حتى الآن، مجموعة "الجدات الأرجنتينيات للأحفاد المفقودين":

t.me/qurssan

نناشد ضمائر وقلوب المسؤولين، الذين تبنوا القضية أو من هم على دراية بالمكان الذي يوجد فيه أحفادنا المفقودين، أن يعيدوا هؤلاء الأطفال - في لفتةٍ إنسانية عميقة ومحبة مسيحية - إلى أحضان عائلاتهم الذين يئسوا من معرفة أماكنهم. إنهم أبناء أبنائنا الذين فُقدوا أو ماتوا في السنوات الماضية. نحن الأمهات والجدات اليوم ننشر صيحاتنا اليومية، مُتذكرين أن قانون الرب يدعم الأبرياء والخلق الأكثر نقاءً. ويمنح قانون البشر أيضًا هذه المخلوقات العاجزة الحق الأساسي الطبيعي، وهو الحق في الحياة، جنبًا إلى جنب مع حب جداتهم اللاتي يبحثن عنهم يومًا بعد يوم، دون راحة، وسوف نستمر في البحث طالما بقي في أجسامنا شيء من حياة. سائلين الرب أن يلهم هؤلاء الذين يرون ابتسامات ومداعبات أحفادنا بالرد على هذا النداء الحزين والموجّه لضمائرهم.

هل قرأ هذا النداء الصادق جدًا؟ هل شَعرا بحرارة تغمر وجهيهما، ورعشة عابرة في عموديهما الفقري؟ هل صمت كلاهما وهما يتذكران هذا التسلسل البعيد بالفعل، وذلك الاتصال عشية عيد الميلاد، والمنزل ذا النوافذ المغلقة، والإيطالية الصغيرة؟ هل ناقش أحدهما الآخر بأن هذا الاحتمال لم يكن واردًا، وأنه لم يكن هناك أي دليل، وأن العسكريين لن يخطفوا طفلًا لتسليمه إلى زوجين هم يعتقدون أنهما متمردان على

t.me/qurssan

النظام؟ هل طالعا أحد الكتب القانونية، التي تؤكد على أنه - رغم كونهما خارجين على القانون - يمكن أن يكون القانون في صالحهما، وأن يضمن أن المُتَبَنّى لم يعد ينتمي إلى عائلته الأصلية وأن علاقته بكل أفرادها تُعد لاغية، بحيث أنه بعد ذلك لا يمكن لأحد أن يقول إن هذا الفتى يخصه، ولا يستطيع أن يرفع قضية يَدّعي فيها نَسَبه، أو حقه في تربيته أو انتمائه إليه؟ هل سوف يفتحا، والوضع كذلك، للحظة - الدرج الذي لم أفتحه مطلقًا، ويشاهدا قطعة الورق التي لم تتهالك بعد، ويفكرا في استدعاء المرأة التي أعطتهم طفلاً؛ ذلك الطفل الذي أصبح مِلْكًا لهما، ذلك الطفل الذي يمتلئ حيوية والذي يحبانه جدًا، ذلك الذي ينام الآن في الغرفة المجاورة؟

t.me/qurssan

31

أزور متحف الذكريات، وأتجول في الممرات المشئومة، وأترك نفسي فريسةً، مرةً واحدة، لنفس المصائر المأساوية، ونفس المسارات الحزينة. هناك صالة مخصصة لقضية الجدات، هذا هو ما تشير إليه الخريطة، وأنا أتبع الخريطة بخطى ثابتة، ولكني أتردد مرةً أخرى عندما أصل إلى المدخل. كان هناك زوجان وحيدان يتجولان ويمسك أحدهما بيَد الآخر في أنحاء الصالة، ويسيران في جولة بطيئة لا يبدو أنها ستنتهي قريبًا. عندما رأيتهما، وأنا أقف عند مدخل الباب، وجدتُ أنني لا أريد مشاركتهما ذلك المكان، ولا أريد أن أخضع لرتم زيارتهما بالتقدم والرجوع بطريقةٍ حساسة والتي تتطلبها تلك الأمتار المربعة القليلة. ما زلتُ قائمًا عند المدخل، في زاوية يمكن لهما أن يرمقاني فيها بطرف العين. أشعر أن الدم اندفع في وجهي، أشعر بالعار المفاجئ الذي لا أستطيع فهم سببه. لم أتحرك مدة ثوان أو دقائق ولكن الزوجين

t.me/qurssan

طلبا المرور وتحركتُ خطوتين إلى الأمام. وقفتُ، ربما ضد إرادتي، في وسط غرفة الجدات.

لا يوجد شيء، لا يوجد شيء تقريبًا. فالصالة مُكَوّنة فقط من صور قديمة معروضة، صور النساء المفقودات، تلك الصور الكلاسيكية باللونين الأبيض والأسود، لضحايا الديكتاتورية العسكرية. كانت هؤلاء النساء الشابات مبتسمات. هناك جهد محسوس للقبض عليهن في لحظات من الفرح، لعرض صورهن وهنّ سعيدات، حتى ولو كُنّ قد قُبِضَ عليهن منذ بضعة أشهر، أو أسابيع في بعض الحالات. وقد قُبض عليهن بعنف، وتعرضن للتعذيب الممنهج حتى لو كُنّ حوامل، فيعطون لهنّ الحد الأدنى من الغذاء الذي يكفي بالكاد إطعام الجنين، ثم يُجبَرن على الولادة في ظروف يُرثى لها. هناك التزام محسوس لمنحهن القوة والكرامة؛ فهنّ بنات النساء القويات الكريمات اللاتي تَسْعَين الآن للعثور على الأطفال المختطفين، الذين استولى عليهم العسكر، وسلموهم إلى العائلات الصديقة للنظام، وتم نقلهم من يد إلى أخرى كسلع ثمينة، وفُقدوا دون أن تجد لهم أثرًا.

كانت هناك امرأة شابة واحدة لا تبتسم في الصورة. شفتاها رقيقتان وشاحبتان، يبدو عليهما نُذُر الشر الذي سيلحق بها، والشر الذي سيصيبهم جميعًا؛ عيناها الملونتان تمتلئان بالحزن الذي يفيض إلى ما حول الصورة، ويعطي هذه الصالة مسحة

t.me/qurssan

الحزن التي أرادوا أن يستبعدوها. عندما رأيتُها، شعرتُ بدافع لا أرادي للبحث عن وجهها، وفحص ملامح وجهها بعناية. وعندما أجد الصورة غير مألوفة بالنسبة لي، ولا تكشف عن شيء، أتوجّه إلى صورةٍ أخرى وأتفحص الوجوه باهتمام بالغ، وأُخَمّنُ ألوان العيون، وتجعيد الشعر، وأدرس شكل الأنف الرقيق، وانحناءات الفك. لماذا أفعل هذا، لا أعرف أو لا أريد أن أعرف، ولا أستطيع حتى أن أعترف بذلك لنفسي.

وعند باب الخروج من الصالة، يوجد صندوق خشبي به فتحة ضيقة، على غرار صناديق الاقتراحات. مكتوب على ورقةٍ جانبه بصيغةِ الأمر التي هي من خصائص اللغة الإسبانية، ضع هنا ما لديك من معلومات لتساعدنا في العثور على الأحفاد المتبقين. خانتني قدماي للحظة. فأنا شخص لم يحسم أمره عند المدخل، ولا أدري هل أدخل أم أغادر. ولم أعد أفهم كَمّ الضيق الذي أشعر به: وأسأل نفسي، برغم أنني لا أستطيع، هل لديّ شيء من المعلومات يمكنني المساهمة به؛ هل عندي ما يمكنني المساعدة به في معركة هؤلاء الجدّات.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

32

أعلمُ أنني أكتب قصة فشلي. لستُ متأكدًا مما أكتبه. أتأرجحُ بين ارتباطٍ غير مفهوم بالواقع - أو بقايا متناثرة من عالمٍ عادةً ما نُسميه الواقع - واستعداد أسطوري شديد، وخدعة بديلة، ورغبة في صياغة معاني ترفض أن تمنحها لنا الحياة. ولا أصل إلى تحقيق ما اعتقدتُ أني راغب فيه حتى مع هذه الحيلة المزدوجة. كنتُ أريد الحديث عن أخي، ذلك الأخ الذي تصفه الكلمات حتى ولو لم يكن الأخ الحقيقي، ولكنني أُخَالِف هذا الطرح في كل صفحة، وأهرب كلما يسنح لي إلى قصة والديّ. كنتُ أرغب في تناول الحاضر، وهذا الفقدان لتواصل المشاعر، وهذه المسافة التي نشأت بيننا؛ وبدلاً من ذلك أتمادى في وصف تعاريج الماضي. ذلك الماضي المحتمل الذي أنأى إليه بنفسي وأضل فيه أكثر وأكثر.

t.me/qurssan

أعلمُ أنني أكتب قصة فشلي. كنتُ أرغبُ في تأليف كتاب عن التّبَنّي؛ كتاب يعالج مسألة محورية، وقضية مُلِحّة تجاهلها الكثيرون، أهملها حتى المؤلفون الكبار، ولكن ماذا يمكن أن أقوله على أي حال؟ ما الحقيقة غير المؤكدة عن هؤلاء الأشخاص الذين لا أعرفهم، والتي تميّزت بتخليها منذ البداية. وربما لم يكن تخليًا، ربما كان مجرد افتراض شخصي، طارئ مثل غيره، اختياري كغيره، على غرار الكثيرين؟ ماذا يمكنني تقديمه غير المخاوف، والمحاذير، والاستفسارات؟ أردتُ أن آخذ أخي كمثال وأجعله شيئًا أكبر بطريقةٍ ما، وأن أصنع سياقًا يتعرّف فيه المرءُ إلى نفسه، ويجد فيه الناس أنفسهم، وأن أتحدث فيه كعينين تريان. ولكن كيف يمكن لأخي أن يُمَثّل شخصًا آخر، إذا لم يكن يُمَثّل حتى نفسه في هذا الكتاب؟ دور غير عادل ذلك الذي أسندته إليه، فهو رهينة لدور لن يكونه أبدًا.

أعلمُ أنني أكتبُ قصة فشلي. فلستُ متأكدًا لمن أكتبُ هذه القصة. أفكر في قطعة الورق المخبأة في الدرج، أفكر في الاتصال التليفوني الذي لم يقم به أحد، وفي الخطأ الكبير الذي يمكن أن يؤدي إليه هذا الاتصال، وفي احتمال ألا أجد من يرد على المكالمة في الجانب الآخر. أجد نفسي خائفًا ومترددًا، ربما يكون الخطأ هو هذا الكتاب، الذي أؤلفه لقارئ غير موجود. أعود إلى

t.me/qurssan

أصل صدمتي. أعتقد أنني أردتُ أن أُوَجّه الكتاب له، وأن أذكر فيه ما سكتُ عنه مرارًا، وأن أُعَوّض فيه الكثير مما صمتنا عنه. لن يكون الأمر كذلك، ولم يكن كذلك، ها قد أدركتُ الآن بالفعل. بهذا الكتاب لن أكون قادرًا على إخراجه من الغرفة - وكيف أستطيعُ ذلك، إذا كنتُ قد حبستُ نفسي أنا الآخر حتى أستطيع أن أكتبه؟ والآن لا أعرف ماذا بعدُ. الآن أقفُ عاجزًا أمام الحروف ولا أعرف أيّا منها يجب أن أختار. الآن، للحظة، أستطيع أن أشعر، أتمنى لو كان أخي هنا، ليضع يده على قفاي، ويضغط عليه بأصابعه بالتناوب، برفقٍ شديد، وعذوبةٍ شديدة؛ ليرشدني إلى الاتجاه الذي يجب أن أسلكه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

33

مرة واحدة في السنة، كان أخي يخرج من عزلته. كان ينسحب من خلوته، ويهجر وحدته؛ ليُبَدّل بطول الغياب حضوره الزائد. ينطلق من غرفته بطاقةٍ لم نتخيلها، برغم تكرار ذلك منه كل مرة، كان يملأ البيت حركةً: ينقلُ الأثاث، ويُفسح المساحات، ويتخلص من أي عقبات قد تُزعجه. ينطلق أيضًا خارج البيت، يجوب مختلف الأحياء في جولاته، ويشتري زخارف الاحتفالات، والآلات الموسيقية، ومكبرات الصوت الكبيرة، ويقابل الأصدقاء القدامى والأصدقاء الجدد، والأصدقاء الجدد للأصدقاء، ويدعو الجميع لحضور هذا الحدث بحماس كبير. حتى المطبخ، الذي نادرًا ما نراه يتردد عليه، يُصبح مقره؛ إذ يختفي وراء حواجز كبيرة كوّنتها صناديق من اللحوم والشراب، كمية لا تُحصى من الصناديق لم يكن يَمَلّ من ترتيبها.

t.me/qurssan

ومن دواعي سروري أن أراه، في أعياد ميلاده تلك، وهو يُحَوّل سلبيته المتراكمة إلى نشاط، ويهجر العزلة ليصبح اجتماعيًا جدًّا. من دواعي سروري أن نرى ما فيه من بُخل في المشاعر يَتحوّل إلى كرم وسخاء؛ وهو سرور قريب من الشعور بالاطمئنان، في الحقيقة. كانت الفرحة غير المتوقعة نشعر بها في تصرفاته، وإن لم تكن فرحة فهي شيء يشبهها. كانت نشوة وكنا نحاول المساعدة فيها ببعض الجهد. مدة ساعتين أو ثلاث ساعات كنا جميعًا هناك؛ متحمسون لحماسه، نضحك لضحكه، لكن بحدود لم نكن نستطيع تجاوزها. ومن يتابعه في ذهابه ومجيئه المتواصل؛ كان يتعجب كثيرًا في الساعات التالية من كمية الشراب واللحم التي كان هذا الجسم النحيل يلتهمها. وشيئًا فشيئًا، تَحوّل الفرح الذي كنا نشعر به إلى خوف، ثم حدث بعض الاضطراب الذي لم نكن نفهم سببه ولكنه تَسَبّبَ في رحيل كلّ منا في سِرّية. في خضم الحفلة التي لم تُنبئ بنهايةٍ وشيكة، تَحَوّلت كل النشوة سِرًا إلى خيبةِ أملٍ ملموسة؛ فانسحب والديّ إلى غرفة نومهما، وقَبّلته أختي وغادرت. اختلقتُ سببًا لكي أغادر المنزل، وهكذا هجرنا المكان الذي كان يُكافح ليملؤه.

كم من الوقت كانت تستمر كل حفلةٍ، لا أعرف جيدًا؛ لكني أعرف كم استمرت تلك التي عدتُ إليها. في تلك الليلة، بينما كنتُ حريصًا على صرف انتباهي عن المنزل، اتصلوا بي مراتٍ

t.me/qurssan

عديدة عن طريق سلسلة من الرسائل تُعَبّر عن حزنٍ غير معقول، وكانت رسائلهم يائسةً تقريبًا إلى حَدّ لم أستطع أن أفهمه. امتدت الحفلة فترةً طويلةً جدًا، هذا ما قالوه. وكانت صاخبةً بالموسيقى والضجيج والضوضاء، وأثناءها شرب أخي دون حساب. كانت أختي ستؤدي امتحانًا مهمًّا في صباح اليوم التالي، وأرادت أن تستذكر دروسها لكنها لم تستطع. ولما رغبت في النوم لم تستطع أيضًا، فقال أبي شيئًا لأخي دون تفكير، مما جعله على وشك الانفجار، حسب تعبير أبي. عندما وصلتُ، كان الوضع قد تجاوز بالفعل أي وصف ممكن أن تُعَبّر عنه الرسائل. كل شيء كان طبيعيًا تقريبًا، والحفلة ما زالت مستمرة، وبقوة، لكن عيون أختي، وأبي، وأمي مليئة بحزنٍ لا تستطيع الكلمات أن تُعَبّر عنه.

لم أتمكن من معرفة ما حدث في تلك الليلة على وجه اليقين. سمعتُ كلماتهم وخُيّل إليّ أنني أسمع مؤامرة لا تُحتمل، برغم أني مقتنع أنهم لا يكذبون. أدركتُ أنهم يتوقعون مني شيئًا يفوق إمكاناتي، أن أقوم بوساطة بدت مستحيلةً بالنسبةِ لي. ذهبتُ خلف أخي بين كل هؤلاء الناس، وقبل أن أراه، كان بالفعل يتجه نحوي. وتوقف كلانا في وسط الصالة، كانت عيناه حمراوين وزرقاوين، كانت عيناه غاضبتين ولامعتين. ولا أدرى إذا كان ما فهمته منه في تلك الليلة كان من نظرات عينيه أو عن طريق

t.me/qurssan

كلماته. أنا لست مثلكم، أعتقد أنني سمعتُ، وأعتقد أن لهجته كانت غاضبةً وحزينةً. أنا لم أولد للتفكير والقراءة والدراسة طوال حياتي. لا يهم أن يخيب أملكم فيّ، أعلمُ أن هذا ليس ما يريدونه مني، وأعلمُ أنني لستُ الابن المثالي، ولكن ألا يمكنني الاستمتاع بحفلتي التي تخصني اليوم فقط؟ أليس هذا منزلي أيضًا، ألا أستطيع شغل المنزل على طريقتي، بالموسيقى التي أحبها؟ في هذا المكان يمكن أن تحدث ضوضاء أيضًا، وهنا يمكن أن نُحدث ضجيجًا، هذا البيت ليس مكتبة. اللعنة. لقد كنتُ سخيفًا، أنا أعلمُ أنني كذلك، لكن أبي أيضًا كان سخيفًا، لقد كنتُ كذلك لأنه كان معي سخيفًا، وهما كذلك كانتا سخيفتين معي، ولأنهم جميعًا كانوا سخفاء.

لا، هذا ضربٌ من الخيال، ولا يرق لأن يكون خيالًا مقنعًا. لا أذكر جيدًا، ولن أستطيع تَذَكّر ما قاله أخي. لا أستطيع أن أنسب خطابًا دقيقًا له، أو حتى خطابا غامضًا؛ خطاب ضال في معانيه سواء بالنقص أو الزيادة. أتذكر للحظة أننا كنا هناك في حوار عاجل وسط ضوضاء شديدة، حوار بين الحزن والتعاطف، بين محاولة الفهم والصراخ المهموم. أتذكرُ أنني منذ ذلك الوقت عرفتُ أنه على حق. أخرجتُ شيئًا منه هَدَأ من روعه، وفي هدوءه وجدتُ هدوئي، بشكل سريع وغير متوقع. لا أعرفُ من منا تمايل قبل الآخر، ومن الذي استند على الآخر، ومن الذي لف

t.me/qurssan

ذراعيه حول أخيه - لا أستطيع أن أقول ما هو الشيء الذي لم نكترث به. المهم هو أننا تعانقنا كما لم نفعل منذ وقتٍ طويل، وبكينا كما لم نفعل منذ فترةٍ طويلة، ولا أظن أننا فعلنا ذلك من قبل.

شعرتُ حينها أن صديقًا له كان يجرنا من مرفقينا، مازحًا أنه يكفي ما أظهرنا من مشاعر في هذا اليوم، وأن البيرة تنتظرنا الآن. قضيتُ الحفلة كلها معه هذه المرة، وتمكنتُ من رؤية أصدقائه واحدًا تلو الآخر وهم يرحلون، في وقتٍ متأخر جدًا: شاردين، وهم يُرَبّتون على كتفيه دائمًا، بحنانٍ وإخلاص.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

34

كان لديّ أخ آخر، برغم أن الأكثر دقة هو القول إنني لم يكن لي أخٌ آخر - والقول فقط بأن أخي كان لديه أخٌ آخر، وربما لم يكن له أخٌ هو الآخر. كان لدي أخ آخر لم أعرفه، ولم يعرفه أحدُ، كانت أمي هي الوحيدة التي أحست به في أحشائها، كان رحمُها مكانًا رحبًا لأخٍ مات قبل ولادته بقليل.

فاتني دائمًا الشعور بألم هذه القصة، أعتقد أنني لم أكن أبدًا حسّاسًا بما يكفي لاستيعابه أو فهمه. وأتردد في الإشارة إلى أحزان هذه القصة، كما لو كنتُ سأقتحم مجالات لا تهمني، كما لو كنتُ سأناقض والدتي دون معرفة السبب. شيء واحد لا أريدك أن تدرجه في كتابك، قالت لي ذات مرة؛ لا تقل إنني لم أحمل إلا في أرض البرازيل. لم تكن تريد أن يفكر أحد - هذا ما فهمته من تحفظها - أن عقمها السابق كان يفتقر إلى أسبابٍ ملموسة، وأنه كان مجرد استجابة نفسية للوضع الذي عَاشَا فيه. لم تكن تريد

t.me/qurssan

أن يحكم أحد - هذا ما استنتجته دون أن تقول لي شيئًا - أنه كان هناك سبب لعدم حملها بطفل، وأن هذا السبب كان منها. لكن رغم كون الأسباب بسيطة، ورغم أن لها معنى وحيد لم تخرج عنه أبدًا، فما السبب الذي يمكن أن يكون أكثر واقعية من عدم الأمان الشديد، وتكون الحياةُ خيطًا مشدودًا على وشك أن ينقطع؟ وما الذنبُ الآخر الذي يمكن أن يعوقها أكثر من هذا، وهو غير موجود على أية حال؟

سنوات عديدة كانت أمي تجتهد كي تصبح حاملاً، وترددت على عيادات كثيرة، وخضعت لعلاجات كانت تُعَدّ هي الأكثر حداثة في هذا المجال، وأُكَرّر، أنني ليس لدي علم سوى كلام مجرد وعام. ولما وصلتْ إلى البرازيل، ومعها بالفعل طفل يقطع صراخه الصمت الطويل للغرفة المجاورة، ومعها بالفعل طفل يحتل بجسده ذلك الفراغ الذي تركه الشوق القديم. وصلتْ إلى البرازيل، وقد تحقق لها أخيرًا وعد الأطباء الكثيرين. أتصور هذه المرأة أمام المرآة، وهي تتحسس بيديها ذلك البروز الذي يرسم رحمًا جديدًا حول سُرّتها، وهي تشعر بجنين يتخلّق ببطءٍ تحت أصابعها. أتصور هذه المرأة على مر الشهور، وهي تشاهد بحماس التمدد التدريجي لقوامها، وتتعود على حركات جنينها، العنيفة أحيانًا والخفيفة أحيانًا أخرى، وهي تدرك بؤرة جديدة للعالم

t.me/qurssan

تتركز بداخلها، وهي تكتشف الشعور الغريب لوجود روحين في جسدٍ واحد.

أتخيّل والدتي الحامل في تسعةِ أشهر وهي قلقة من السكون غير العادي للطفل الذي لم يُولد بعد، وهي عائدة من الشاطئ متعجلة في طريقها إلى المستشفى، مؤكدة لنفسها ولأبي، وهي تشك من داخلها، أن كل شيء سيكون على ما يرام. ولا أستطيع أن أتخيّل منظرها، رغم ذلك، وهي تتلقي خبر وفاة الجنين، وموت الابن الذي كان لديه اسم بالفعل، وكان لديه سرير، وسيكون قريبًا له كرسي على المادة. لا أستطيع أو لا أريد أن أتخيّل معاناتها. لمدة أسبوع كان عليها أن تحمل ابنها الخامل في بطنها في وداع بطيء لكلّ ما كان أو يمكن أن يكون، للصبي أو قل لمشروع الصبي، لابنها أو لوهمها. وداع بطيء بلغ ذروته في أحزن ولادة يمكن أن نتصورها، ولادة طفل ميت، أو موت حُلم في ولادة طفل.

هي التي تتحدث، أسمعها تتحدث، عن استيائها. هي التي تحكي عن حبس نفسها في المنزل وعدم رغبتها في مغادرته، متجاهلةً توسلات زوجها، وسَلّمتْ نفسها للحظات اليأس. ولكن كان هناك صبي، خجول كما لم يكن من قبل، يلتزم الصمت الحسّاس، ويرمقها بعيون حزينة شحيحة بالدموع كما لم تكن من قبل. كان هناك صبي، ابن يطلب رعايته، ويتوسل دون كلمات أن

t.me/qurssan

تأخذه بين ذراعيها، في تلك اللحظة، الآن وليس فيما بعد. وفي تلك اللحظة، في ذلك الآن، عندما أخذته بين ذراعيها، كان هو الذي يحميها، كان هو الذي هَوّن عليها بمداعباته عدم الأمان الذي يُلهبها بسياطه وابتُليت به منذ خسارتها ولدها. كانت هناك عدالة مائلة في هذا الحدث الصعب، لو كان حملها قد اكتمل، وولدت الصبي، لكانت الآن تحمل بين ذراعيها وليدًا، تمس بشرتها بشرته، تحس بمشاعر غريبة لا يمكن لأحد أن ينكرها عليها.

لم أشتق إلى أخي هذا قط - على العكس، كان وجوده المستحيل عادةً ما يثير عندي بعض الشكوك المزعجة. كنتُ أسأل أمي: كم من الأطفال كنتِ تريدين أن تنجبي؟ وهي تجيب دون تردد: كنتُ أرغب دائمًا في إنجاب ثلاثة أطفال. ربما تحقق ذاتها وتضمن لكل واحد منا مكانًا محددًا في مشروعها. ولا أسأل ما كان يمكن أن يكون مني، وترتيبي الثالث، لو كان هذا الابن الآخر قد نجا، أتحكم في نرجسيتي ولا أريد أن أبدو طفوليًا. لكني أعتقد أحيانًا أنه لو قُدّر لهذا الطفل الحياة، فما كان لهذا الكتاب أن يظهر للوجود، أو ربما كان هو كاتبه.

t.me/qurssan

35

في ألبوم الصور، هناك صورة لأمي وهي تُرتّب الصور في الألبوم. سِجل غريب لذكريات تتكوّن، لوجود بعيد يتحوّل إلى سرد قصصي في تسلسل مصطنع للصور: فكرة طريفة لأنه سيكون هناك شيء نتذكره في بناء الذاكرة نفسها. في الصورة، أرى أخي في سن الثالثة أو الرابعة، ينكفئ على الألبوم باهتمامٍ كبير، أو ينكفئ على يد أمي وهي تُرتّب الألبوم. ربما بدأ يتعلم عادته الغريبة في التّعرّف إلى نفسه من خلال شخصية أخرى، سواء أكانت هذه الشخصية أبي أم أمي أم هو نفسه. ربما بدأ في تعلّم ممارسته الغريبة في أن يرى نفسه في شخصيات مختلفة وأن يحكي عنها - تلك الممارسة التي سيحاول تجنبها بعد سنوات. ولما رأيتهم تجلّت لي الصورة بوضوح: أن قصتي هذه قد بدأ والديّ في وضع لبناتها الأولى منذ زمن، وأني لم أبتعد عن روايتهم بالصور سوى الشيء اليسير. عند رؤيتهم، أشعر جزئيًّا أنني كائن

t.me/qurssan

أعدّه أبواه كي يحكي قصتهم فيما بعد، وأن ذاكرتي مستمدة من ذاكرتهما، وأن روايتي لابُدّ أن تحتوي على حكايتهما.

أقلبُ الصفحة وأرى صورة والدي مُلقى على فراش غير مُرتّب. وكتاب مفتوح في يده وغلافه مطوي للخلف حتى يتمكن من إمساكه بيد، والسيجارة باليد الأخرى، يضعها في فمه. وفي لحظة التقاط الصورة كان أبي لا يقرأ الكتاب؛ بل يُدير وجهه ناحية أخي الذي كان ابن ثلاث أو أربع سنوات، يتأمله، وكان مضجعًا بجواره. وبيده الصغيرة يحاول أن يمسك بكتاب ويُبقيه في مرمى النظر. وبين شفتيه الرقيقتين، قلم رصاص يمسكه كأنه سيجارة طويلة جدًّا، يدخنها وهو شارد الذهن، أو كان يتظاهر بذلك مع الكتاب الذي يصعب فهمه. كان وجه أبي خاليًا من التعبير؛ نصفه مغطى بيده المفرودة ودخان السيجارة. لكني رغم ذلك ألمحُ عليه شعورًا بالفخر لا يستطيعُ أن يُخفيه، وفرحة بأن يكون نموذجًا يُحتذَى، لما رأى الطفل يسعى بطريقةٍ هزليةٍ إلى تقليده. ولأن ما بينهم من أوجه التشابه قليل الآن، فهذا يجعلني أتعجب في صمت، باستثناء العيون الزرقاء التي يرى الكثيرون فيها وجهًا للتشابه. في أي لحظة فَضّلَ أخي أن يُمَيّز نفسه عن ذلك الرجل، وأن يرفض أن يُحَجّم نفسه في شخصية أبيه، وأن يهجر تقليد حركاته وعاداته؟

t.me/qurssan

ربما كان لأخي دائمًا طريقته الخاصة لممارسة عنفه، هذا ما أعتقده بعد ذلك، في محاولة غير لائقة لإعادة صياغة أوجه التشابه بينهما. تتبادر إلى ذهني حكاية بسيطة ومُعَبّرة حدثت في عصر أحد الأيام الكثيرة التي يخرج فيها أبي وتبقى أمي بالبيت، وباب الغرفة موصد عليها مع أحد المرضى، تلك الغرفة التي حوّلتها إلى عيادةٍ في منزلنا. من الممكن أن يزعج هذا الظرف وحده ولد صغير جدًّا، وإذا أضفنا إليه وجود أختي التي ولِدَت قبل بضعة أشهر، أعتقد أن هذا سَبّبَ لأخي أرقًا إضافيًّا - برغم ظهوره معها في الصور حنون جدًا. الحكاية صغيرة جدًّا، لكنها غامضة غموض كل قصة تستحق أن تُروى. كان الوقت هادئًا، فتح أخي باب الغرفة، ودون أن يقول أي شيء، دون غزو ذلك الفضاء المحرّم عليه، ودون محاولة للوصول إلى الأم - المحللة النفسية - أو إلى المريض الذي أذهله فعل الصبي، الذي ألقى تفاحة أرجنتينية كبيرة بقوة، تفاحة تحطمت على الأرضية الخشبية.

يستمتع والديّ بسرد هذه القصة. وأستمتع في كل مرة بالاستماع إليها. ثم أسأل، غير متأكد من الحاجة للسؤال، إذا كانوا قد وصلوا لمعرفة ما كان يزعج الصبي، ولِمَ كان عنفه، ولماذا كان يظهر عليه. وإذا كان أخي قد بدأ كفاحه الخاص، عندما أنهيا كفاحهما. ويجيب أحدهما بنبرةٍ هادئة: أنه لم يكن

t.me/qurssan

يُفصح بالكثير، كما تعلم. إن أخاك يفضل دائمًا الأفعال على الأقوال. ثم أتطرق إلى السؤال حول الصعوبة المحتملة في التعامل مع الابن الذي لا يُشبههما في شيء تقريبًا، وحول الصراعات التي يمكن أن تنشأ عندما تتعرض لمثل هذه الأفعال غير المتوقعة، وما تسببه من عدم الاستقرار، وحول كسر حاجز التوقعات الدائم، وحول قوة ما هو غير متوقع. ويقاطعني أبي في الوقت المناسب: هل تعتقد أن أخاك فقط هو الذي يختلف عنا، وهو الذي لا يمكن التنبؤ بأفعاله، وغير مستقر؟ هل تعتقد أن أي طفل يترك نفسه كي يُشَكّله أبواه؟ إن كل الأبناء يتجاوزون ما نتوقعه منهم. لم يكن أي منكم الولد الذي تخيّلناه أبدًا، ولا فعل أيُكم ما انتظرناه منه، وفي ذلك تكون الطرفة.

t.me/qurssan

36

وخُتمتُ قصة والديّ السياسية، أو ما اصطُلِح على تسميته التاريخ السياسي - من إصرار على العنف، والعمل القتالي، والمشاركة في الحركات الجماعية. أستطيع القول بشيء من الحزن، إن سُخطهما قد انتهى. وأن ثورتهما على النظام الذي حَدّده الآخرون آلت إلى زوال. خاتمة، ربما تكون في الوقت نفسه، بداية العملية التي من شأنها أن تجعلهما الكائنين السلميين اللذين أعرفهما، المهنيين المتفانيين، المسئولين عن أسرةٍ مجتهدة، البالغين اللذين يجلسان على المائدة كل ليلةٍ ويُقَلّبان السكر في أكواب الشاي بصبرٍ وهدوء.

هذه الحلقة التي تُشبه النهايات حدثت في أوائل الثمانينيات. كانت الأسرة قد تكوّنت أخيرًا من خمسةِ أفراد، ولم تعد متخفيةً بعد، واستقرت بطريقةٍ رسميةٍ في البرازيل بفضل ابنتها التي وُلِدَت هناك وأهدتهم الإقامة. عائلة سعيدة، كما قد يستنتج

t.me/qurssan

المرء، تُشبه جميع الأُسر السعيدة، ولكن ما زال يُخَيّم عليها الشعور بأنها في المنفى، وتهب عليها رياحٌ باردةٌ محملة بآلامهم القديمة، وتهمس في آذانهم بقصص الرعب التي لم تنتهي بعد. وفي همسٍ أيضًا تأتي الدعوة غير المتوقعة، يتمتم بها بعض الرفاق: أصوات تتوالى وتنكر على أولئك القابعين في هدوء ولا مبالاة موقفهم، فقد حان الوقت للعودة إلى الاجتماع معًا، وأن هناك حاجة إلى القيام بشيء، وأنه سوف يظهر من يستطيع أن يقود خُطاهم.

التقوا في "وايت ووتر بارك"، على النحو الذي حَدّده صوتٌ أثيري: صوتٌ كان يشحذ همم الآخرين ولم يكن أحدٌ يعرف مصدره. يحكي القصة والديّ كلّ على طريقته، وقد أثارهما ذلك الأمل، وعاودهما القلق الذي يبدو أن الرفاهية البرازيلية أنستهما إياه؛ شيء من الحماس للمشاركة في صُنع الحاضر، والتوقف عن تجاهل سنوات العذاب الطويلة. التقوا قبل شروق الشمس في الحديقة، وتجمعوا تحت شجرة مطاط، عشرة أو اثني عشر شخصًا بأرجلٍ مهزوزة وتعابير خائفة. ثم برز أحدهم من بين الجميع وبَدَا أن له سُلطة لا يُنازعه فيها أحد. وبدأ يتحدث بإلحاح عن ضرورة التّصَرّف بسرعة، في توجيه الضربة القاتلة للميليشيات، والإطاحة بها بأي ثمن في هجوم واسع. كان يتحدث بعباراتٍ متراصةٍ دون حماس، بينما يدس ذراعه في حقيبته

t.me/qurssan

ويخرج شيئًا مثل قنبلة يدوية في ضوء الصباح الباكر. القنبلة تعمل بطريقةٍ بسيطةٍ، وصوته كان حازمًا، فقط اسحب هذا الغطاء في الوقت المحدد، مما يجعل الصمام يعمل، ويشتعل ويُفَجّر شحنة البارود، هذا بالطبع فيما بعد، وعليكم رميها بيدٍ ثابتة. ويجب التعامل بذكاء وحذر، انظروا إلى شكلها وملمسها، انظروا إلى وزن البارود، احسبوا القوة المطلوبة لإلقاء القنبلة من مسافةٍ آمنةٍ، إلى أقصى حد ممكن من الأمان.

أمي والقنبلة في يديها، أمي وكيف لا أفهمها، لا يمكن إلا أن تشعر كم كان هذا سخيفًا، كم كان يتعارض ذلك مع مبادئها، وكم كان يلهب يديها هذا الشيء المشؤوم. أما أبي، وهو يتلقى من يديها ذلك الحِمْل الثقيل، يسمعها وهي تهمس بغضب أن هذا أمر مثير للسخرية، لاحظ أنها كانت تستعد للرحيل من فورها، وتَبَيّن أنه لم يكن يريد شيئًا سوى مرافقتها، وأنه لم يتبق شيء للقيام به هناك. في تلك اللحظة ماتت الحركة بالنسبة لهما، وهاج كلاهما وهما يبتعدان عن الحديقة، وكلما بَعُدَا شَعرا ببعض الارتياح، وما زالا يغضبان عندما يتذكران ذلك الاجتماع. في هذا الموقف انحرف النضال عن معناه، في هذا التحريض على العنف، في هذا الطيش، في هذه النكبة. هل أراد أولئك الرجال الثورة، أم أرادوا تكوين جماعة انتحارية؟

t.me/qurssan

لا، ليس هناك ختام لتاريخ والدي السياسي. كان لنضاله ملامح أكثر عقلانية وأكثر وضوحًا في الوقت نفسه: كان نشاطه يتجلى دائمًا في عادة الاستجواب، النقاش، الجدال. والآن بعد أن أراهما بهذه الحال، أشعر أنني لا أختلف عنهما، أو ذلك ما أتمنى. الآن، وبعد أن وصفتها بهذه الطريقة، دون الخيال الذي يحيطها، تفقد الأسلحة كل سحرها مرةً أخرى. أنا مع والديّ في رحيلهما عن الحديقة، أترك خلفي ما لا أعرفه. أنا مع اقتصار النضال على التأمل والتَدَبّر. هذا جيد، وعلى طاولة الغرفة آخذ رشفةً من الشاي بعد أن أُقَلّبه كثيرًا. لم أطمح أبدًا في امتلاك سلاح في يدي، وقول ذلك هو أيضًا نوع من العمل، ويُشَكّل جزءًا من تاريخ سياسي.

t.me/qurssan

37

أنا مع والديّ على طاولة غرفة المعيشة، أشاهد وجهيهما يتأرجحان بين الاستسلام وانشغال الفكر، وأرى في كتفيّ أختي الإنهاك المعتاد. لم أعد أعرف حتى كم ساعة قضينا، نحن الأربعة، جالسين على الطاولة نتناقش حول أخي. كم ساعة قضينا هذا الأسبوع، هذا الشهر، أو هذا العام، لم أعد أعرف منذ متى، منذ أن تحوّل موضوع أخي إلى صداع، إلى عمل يومي، إلى حقيقة لا مفر منها للوجود. ماذا بقي كي يُقَال عن بُعده، وقلة حيويته، ومقاومته، وحياته التي يقضيها في عزلة؛ تلك الحياة التي يسودها الشلل والصمت. كيف يمكن أن نشغل أنفسنا أكثر من ذلك بشأن تحركاته النادرة، وظهوره المفاجئ، وخروجاته غير المألوفة في مدينة هي على النقيض من غرفته، مدينة يلهو فيها كل مرة بمزيدٍ من الاندفاع صوب فتنها وخلاعتها. أين يذهب عندما يخرج، لا نعرف، مع من يذهب، أو ماذا يفعل، أو أين

t.me/qurssan

يختفي. وعندما يعود، يحبس نفسه في غرفته، وحينئذٍ يتركنا في حيرة كبيرة؛ هل يُعَاني من آلام لا يعرف طبيعتها، هل يهرب من الأسرة لشعورة بالضيق، هل لأنه يصطدم بحاجز غير موجود، هل لأنه لا يريد الاعتراف باختلافاتنا. أم هل نحن الذين لا نقدر على تحمل تَغيراته، ولا نستطيع فهمها، لن يمكننا أبدًا معرفة من هو. كل هذه الأفكار الملحة كانت ثمرة مؤقتة لقصورنا عن فهمه، وإلهاء عديم الفائدة، وتدريب على إرضاء النفس، وبديل عن الكلمات الأكثر دقةً وصدقًا والتي لا نقدر على إخباره بها. ويختلف أحدنا مع الباقين، دعونا من جلد الذات. ربما كان حديثنا عنه نوع من العطف مع فقدان الأمل، لأننا نريد أن يحضر معنا بسيرته رغم غيابه. ربما - يومئ أحدُنا - ربما كان من مصلحته أن يتردد على محلل نفسي، وما أن يقترح أحدُنا، حتى يُقَابل برد معروف يتبناه الآخرون منذ وقت طويل، إنه لن يقبل، لن يقبل أبدًا. كما أن حَمْله على العلاج دون رغبةٍ منه؛ لن يكون له أي فائدة سوى العنف.

ونتذكر معًا، دون الحاجة لكسر الصمت العابر، تلك المرحلة البعيدة من سنوات مراهقته، تلك السنوات الطوال التي كان يتردد فيها على محلل نفسي، والتي لم تتحسن حالته أو كادت أن تتحسن فيها رغم الرعاية الكبيرة، والآمال العريضة. وكان المحلل يدعو والديّ إلى الحديث معه ويدهش من كم المعلومات

t.me/qurssan

الناقصة، مثل موضوع التَّبَنّي، وهو شيء مهم جدًّا، لم يقل عنه شيئًا، كيف أمضى سنوات عديدة في العلاج النفسي وهو يخفي شيئًا بهذه الأهمية، كما يتحدث بصراحة عن نفسه، سنوات عديدة، دون أن يحكي شيئًا عن هذه المواضيع؟

ونعود مرةً أخرى: الموضوع هو أنه يحبس نفسه، يغلق على نفسه غرفة النوم، وينطوي على نفسه، ويبدو أنه لا فائدة من محاولة الاقتراب منه، لأن ذلك يزيد غضبه، كما لو أن طرق الباب وتحيته بصباح الخير يُعَدّ غزوًا لحياته، وأنهم بذلك يريدون حرمانه من العزلة التي اختارها لنفسه؛ حيث يجد راحته، ومواساته، ونسيانه، وكل ما يُبقيه على قيد الحياة، وهي السّمة التي لابُدّ منها لوجوده.

وبعدها، عند فجر يوم من الأيام، بينما كنا نيامًا جميعًا في هدوء، ربما نسي وجودنا في نهاية سهرته، وصل أخي من حيث كان وصدم رصيف البيت بالسيارة بشدة؛ صدم السور، وصدم المنزل نفسه. لا أدري إذا كان أحدهم قد سمع شيئًا، ولا أدرى كيف خَطَا حتى وصل إلى سريره متسللاً دون أن يراه أحد. فقط في نهاية الصباح، عندما استيقظتُ، علمتُ بالحادثة. لم يحدث من قبل أن أصطدم بالسيارة - عَلّقت والدتي - لم يكن شيئًا خطيرًا؛ أساس البيت متين، ولم تتأثر السيارة سوى من المقدمة. ما زال أخي نائمًا، ولكن هل بوسعنا القول إن كل شيء كان على

t.me/qurssan

ما يرام؟ لقد اصطدمت السيارة بالمنزل نفسه. من يتجاهل الاعتراف بهذا الغضب، ومن الذي لم يستمع لهذه الصيحة المدوية؟

t.me/qurssan

38

هي مثل الأيام التي كنا نتشارك فيها الغرفة، أعتقد، هي كما اخترعها من الذاكرة. كنا مذبذبين في كل صباح بين الصمت والنسيان، بين الإكراه والخوف. كانت جلسات العلاج الأُسري كذلك، برغم قُربها الزماني، إلا أنها مُمعنة في القدم - كنتُ منبهراً بها حتى أنه لا يمكنني أن أتذكرها، وتتطلب مني جهدًا تخيليًا يجعلني أشك كثيرًا فيما عندي لأحكيه. كانت جلسات للعلاج الأُسري، لمدة خمس وسبعون دقيقة لا أكثر، كنا نقضيها كل أسبوع في الغرفة نفسها، برعاية شخص رائع مجهول، نتبادل النظرات المكبوتة والجمل الخاطئة. خمس وسبعون دقيقة كنّا نتحدث فيها كثيرًا، ونصمت كثيرًا، خوفًا من قول المحظورات أو من عدم قول الضرورات.

مجرد تحايل، أو ذريعة قادتنا إلى هناك. إذا لم يكن يقبل العلاج الفردي - كما اقتراح أحدنا - فربما لا يُمَانع في مرافقتنا،

t.me/qurssan

ربما ينخرط في العملية ولا يريد الهروب، وربما نتسلل قريبًا ونتركهما يتحدثان على انفراد. كنا نخدعه لكن بحُسن نية، أُفَضّل أن أفكر بهذه الطريقة، لا أعرف حتى الآن، ولم أفهم بعد، أننا كنا نخدع أنفسنا فقط. كان ذلك علاجًا لنا نحن، وكان قد بدأ بيننا شيء ما، أو ظهر شيء ما، ويجب علينا نحن أن نتخلى عن مقاومتنا العلاج، عن سكوننا، عن صمتنا الاختياري ولأننا كنا جاهلين، ولأننا لم نكن نعرف ذلك، انتهى بنا المطاف إلى أن ضعنا في اجتهادات غير مهمة، وفي تعليقات مبعثرة، مع تأجيل أي إيماءة لحالته قدر الإمكان، أو أي تَفَوّه باسمه، رغم تركيزنا جميعًا على الأريكة التي ينزوي فيها رغم أنها كانت الأبعد عن أريكتنا، والأقرب من الرجل الذي يستمع إلينا.

حينها عَبّرَ أخي عن نفسه بكلام لم نتخيله أبدًا. لا أتذكر الكلمات التي قالها، فقد كانت الكلمات أقل أهمية من التأثير الذي أحدثته. أتذكر أنه بينما كان يتحدث، بينما كان يُعَدّد الكثير من المواقف التي جُرح فيها شعوره، ومن الاضطرابات التي كانت تحدث له يومًا بعد يوم، وبينما كان يُعَدّد باستياء كبير العديد من الأخطاء التي ارتكبناها، والكثير من الانحرافات المشينة؛ فأبي مشغول دائمًا بالعمل، وأمي مستغرقة في توتر المرضى والمطالب الروتينية، وأختي منهمكة في الإقامة في قسم طب الأطفال، وأنا مُشتت انتباهي في كتاب أقرأُه. كان يُوَجّه

t.me/qurssan

أصابع الاتهام الباطل بأنه لم يهتم به أحد، ولم يُكَلّف أحد نفسه عناء معرفة ما إذا كان على ما يرام، وإذا كان بخير على الجانب الآخر من الباب، أو من المنزل، أو من المدينة، وإذا كان ما زال حيًّا يُرزق أم لا. أتذكر أنه بينما كان يتحدث، استعاد شيء ما بداخلي إحساسه.

كانت كلماته أحق من كلماتي، في كلماته، كانت "أنا" تنصهر مع "نحن" التي كنتُ أصر عليها كثيرًا، "نحن" التي كانت مُفرقة ومعيبة، "نحن" التي كانت تستبعده. عندها، وأنا أستمع إلى أخي يُمَجّد نفسه في أعين محايدة لشخص غريب، أتذكر أنه غمرني شعور قديم، أتذكر أنني شعرتُ بأننا أُسرة حقيقية.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

39

كيف يمكن أن يتجاهل أننا كنا هناك - غضبت أمي، وغضب أبي - كنا دائمًا هناك على الجانب الآخر من الباب منتبهين، وأننا كل صباح نتحول لبضع دقائق إلى مخلوقاتٍ مليئة بالتوقعات، ننتظر خروجه من حجرته بقلق. نتدرب عقليًّا على الكلمات التي سنقولها له، وعلى اللهجة الدقيقة التي نقول بها كل كلمة، وحركة جسم أمي وهي تطلب منه قُبْلة، وعلى دفء مشاعر الاستقبال. ومن المنطقي ألا يكون كلامنا معه كله معسولًا - يستدرك والدي، وتستدرك والدتي - لابُدّ أحيانًا من لهجةٍ حازمة، وملاحظةٍ قاسية؛ خاصةً عندما ترى مثل هذا الطفل الغريب، حزينًا بهذا الشكل، مستسلمًا بهذا الشكل. خاصةً عندما نشعر أن الولد يستهلك وجوده في فراغ لا معنى له، ويبدو أن هذا الفراغ نفسه يستهلكنا نحن، ويصيبنا بالعدوى. خاصةً عندما يستحوذ علينا هذا العجز، ويبدو معه أن أي مجهود ليس كافيًا

t.me/qurssan

على الإطلاق، ولم يقم أحد منا بدوره، يراودنا هذا الإحباط العميق - لا أتذكر بالضبط من منا قال ذلك.

لكن كل طفل هو حالة مستقلة. ألم يكن هذا ما قاله "وينيكوت"؟ كل طفل يستقل بذاته عن والديه في مواعيد الاستيقاظ؛ في طريقة المشي، في خروجه من غرفته، وفي انغماسه في الحياة. هناك شرارة حيوية في كل طفل. هكذا قال المحلل "وينيكوت": هناك شيء يعتمل داخل هذا الكائن موجود بذاته، هناك شيء ما يعتمل وليس للأب ولا للأم مسئولية عنه وبطبيعة الحال، فالآباء والأمهات لديهم دور في إيجاد بيئة صحية، وتوفير الضروريات، وتوفير المحفزات، ولكن قد يكون من المناسب أن يفهما أخيرًا أن واجبهما ينتهي هنا، وليس من الضروري أن تكون كل مشكلة سببها خطأ من الأصل. وليس كل شيء بسيط للغاية يجب أن نبحث له عن سبب، لن تستطيعوا تمحوه أبدًا. هذا شيء خيالي - يقترح المحلل - أو ربما ينبغي أن يكون خياليًا، ذلك الفراغ الذي تشعرون به، هذا الإحباط، هذا العجز، هذا الشعور الصعب على النفس بالتقصير. ما الخطأ الجوهري الذي يمكن أن تكونوا قد ارتكبتموه، في نهاية المطاف، حتى يكون بالحال التي هو عليها الآن؟

ثم إنه أنا الذي أتعرض للخطر، أو أختي التي تخاطر عندما نبوح بما كان لفترة من الوقت قيد النسيان؛ أعني حقيقة أن

t.me/qurssan

اخانا مُتَبَنّى، أو جرى تبنيه. أو أنه ابن بالتّبَنّي. ما أحاول قوله، أو نحاول أختي أن تقوله، هو أنه ربما يشعر والديّ بهذا الشعور نظرًا لأنهما تَحَمّلا بهمةٍ ونشاط في يومٍ بعيد المسئولية المباشرة لهذا الوليد، وأخذا على عاتقهما مهمة أن يكون ذلك الصبي على ما يرام، والآن، هما غير واثقين من أنهما قد نَجَحَا: فيتركان هذا الإحباط يسيطر عليهما. أو يسمحان للقلق أن ينغص عليهما حياتهما، من خلال هذه الرغبة لتحريك هذا الابن برغم أنه لا يريد أن يتحرك. لكنني لن أقول ذلك، فالكلمات تنقصها العزيمة وتحتاج إلى وقت، ولأنه في اللحظة التي أتكلم فيها، سيفقد أخي احترامه، لا. ليس لي علاقة بالأمر - سوف يقاطعني بحدة - ما علاقة ذلك بأي شيء، لا علاقة له، ليس هناك ثمة علاقة. وهو يُكَرّر دائمًا أن مهمته سوف يكون مآلها إلى الضياع، والحيرة، والانتكاس.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

40

عائلتنا لها تاريخ في التَبَنّي، والقصة تطفو الآن على السطح كما لو كنا نعرفها منذ الأزل، كما لو كانت جزءًا من ميراث كبير للعائلة. والدتي هي التي تقصّ علينا الحكاية بطريقةٍ فكاهية، وبرغم طرافة الأسلوب إلا أنها تلتزم بعضًا من ضبط النفس في صوتها، وربما حرص غير عادي، واهتمام كبير بالكلمات والمفاهيم التي قد تقلب القصة رأسًا على عقب.

منذ زمن بعيد كان والد جدي له ابنة تُوفيت في سن مبكرة، وكانت تحمل نفس اسم والدتي - كما تشير هي بتعجب ولكن دون الوقوف طويلًا عند الصدفة - ودون الخوض كثيرًا في العلاقة غير العادية التي ستنشأ بين الاثنتين. وتَبَنّى الجد فتاةً أخرى - كي يُهَوّن على الأُسرة آلام فقد البنت الصغيرة - وأعطاها اسمًا مختلفًا غير اسمها، لكنه حاول تربيتها على التقاليد

t.me/qurssan

الراسخة نفسها، والعادات التليدة نفسها، وعلى أسطورة الأصل العريق نفسها، وبأسلوب رقيق، وشكل مثالي.

ومراعاة لمشاعرها، لم يرد جدي أبدًا الكشف عن المأساة التي جاءت بها إليهم، ولم يخبرها أبدًا أنها كانت ابنتهم بالتَّبَنّي. ومر ثمانية عشر عامًا قبل أن تأتي لحظة كشف المستور، ثمانية عشر عامًا كما يحدث عادةً في الأساطير: حين حدث أمرٌ غريب غير كلّ شيء. كانوا يخططون لرحلة إلى أوروبا، وكان من الضروري الحصول على وثائق تحقيق الهوية. كانت بنت ثمانية عشر عامًا عندما اكتشفت الفتاة ما أُخفي عنها طوال عمرها. وفي النهاية، يتسارع إيقاع الحكاية، كما لو كانت السرعة ستخفف من حدة المأساة. ودون فضيحة، ودون أي نوع من المواجهات، تزوجت الفتاة بأول خطيب، رحلت ولم تعد إلى البيت، دون أن تقول أي شيء، اختفت.

أسمعُ هذه القصة بقليلٍ من الاهتمام، في البداية لا أريد أن أفهمها. فهناك مغزى أخلاقي يسهل فهمه، إنه واحد بين العديد من الأمثلة على الهمجية التي نعانيها، من عدم القدرة على قبول التراكيب المتنوعة التي يمكن أن تتكوّن بها العائلة، وقبول أنها لا يجب أن تتبع دائمًا نموذجًا واحدًا. أعتقد أنني فهمت بعد ذلك شيئًا أكثر عمقًا، وهو أن والديّ كانا يريدان حماية أخي من أن يحدث له مثلما حدث في هذه الحكاية القديمة: هذا المصير

t.me/qurssan

البائس، هذه النهاية المحزنة. منذ سن مبكرة بذلوا جهدًا لتعريفه من هو، ومن أين جاء، تجنبوا الشكوك غير المتوقعة والاكتشافات المحفوفة بالمخاطر.

منذ سن مبكرة اعتنيا بإعطائه ما يريد، وضمنوا الرعاية المطلقة له، ومنعوا عنه أي شيء يُصيبه بالملل. ولا حتى بهذه الطريقة أمكنهما أن يحميا نفسيهما - ولن يستطيعا - من هروب مفاجئ محتمل، ومن بُعَاد أكبر قد يقرر اختياره لنفسه، ومن اختفاء جديد. وأتساءل للحظة - رغم أنني لا يجب أن أفعل، وبرغم أنني لا أريد أن أظلمهما، وبالرغم من صمتي ومغادرتي الجلسة بهدوء - أتساءل عن مدى رضاء والديّ عن هذا الوجود غير المشروط للابن، وعن اختلائه بنفسه. أما بالنسبة لسكونه، وعزلته التي لا تتغير، فلن تحميهما من الخطر القديم، من ذلك الخوف الأسطوري. وبالنسبة للمعركة التي بدأوها الآن باسم الابن؛ أليست هي معركة ضد أنفسهما.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

41

وتَذَكّر أحدهم؛ ربما كانت أمي، أو أبي، وربما كان المحلل النفسي، لا أدري، تَذَكّر أن "وينيكوت" كان لديه ابن بالتّبَنّي. لم يكن ابنًا بالتّبَنّي - يصحح أحدهم للآخر - كان شيئًا يُشبه التّبَنّي، كان صبيًا تحت رعايته بعض الوقت. وهو لاجئ حرب يتيم لم يتكيّف مع ظروف المخيّم. أتكلم هنا عن الكراهية التي يتحدث بها "وينيكوت" عندما يصفه: بالرغم من كون الصبي مُبهجًا، بعض الأوقات، إلا أنه لا يمكن السيطرة عليه، كما أنه كان عدوانيًّا، وهو يُثير سُخطهم دائمًا، ويجعل حياة الزوجين جحيمًا. يقضي الأيام في البحث عن والديه المفقودين، بلا وعي - هذا ما استنتجه أبوه بالتّبَنّي - ويرفض العطف عليه من الآخرين، وهو دائم الشك في البيئة الجديدة. ولا تأتي الكراهية من جانب الصبي فقط، لقد سيطر عليه أيضًا - هذا ما يُفهَم من كلام الأب المؤقت - وهذا هو بالضبط الكره الشديد الذي يريد الصبي أن

t.me/qurssan

يعرف سببه. وعندما يشعر بهذه الكراهية يمكن أن يثق في الحب الذي سيقدمه له الوالدان الجديدان، ويعرف أن العلاقة بينهم ليست مجرد صدقة أو عمل خيري مبتذل. هل يفهم أخيرًا، هذا الرجل الذي صار أبًا، حاجة الولد إلى التنفيس عن مشاعره، ولا يثور على سوء سلوك الصبي، ويُحدّ من تدخله في حياة الولد؟ لا.. إنه يتمادى إلى أبعد من ذلك، يطرد الصبي من المنزل ويأمره بعدم العودة إلا عندما يتعلم كيف يتصرف جيدًا. في كثير من الأحيان يتم تكرار الطرد ليلًا تحت المطر في فصل الشتاء. ويعود الصبي دائمًا، مُتَعَلّقًا بشكلٍ متزايد بالعائلة، يعود وهو شاعر أكثر بأنه ابن لهذه العائلة.

ما تُمَثّله القصة، المنزوعة من سياقها، ليس من السهل توضيحه. لا أحد يقول إن الوضع سيء للغاية، لا أحد يؤيد هذه الوحشية في التعامل، ولا أحد يدافع عن تمسك الأب بهذا النموذج القديم في التربية - فأمي، وأبي، والمحلل النفسي، وكل من أراد أن يُثير المشاعر بهذه الحكاية، يعاني الآن كي تفهمه الناس. وهي لا تُوحي بأن ما يشعر به أخي هو إحساس بالكُره، أو أنه يُكَابد شوقه لأي امرأة كانت، ولا لأي رجل كان، أو لأي من هذين الشخصين اللذين أتيا به إلى الدنيا - لا أحد يقترح لا هذا ولا ذاك. أن يكون سجنه لنفسه هو للبحث عن هذين الشخصين. إن ما يدافع عنه هنا هو الحاجة إلى معارضة الولد كلما بَدَا

t.me/qurssan

مناسبًا، ورفض رفضه، وأن نعترض على اعتراضه على التعايش. إن كل ما يفكر فيه هنا فقط هو ما إذا كان هناك، أمام أول انكماشٍ غير مُحَدّد، انكماشٌ معكوس: إذا كان أخي هو الذي يغلق على نفسه في الغرفة، أو إذا كنا نحن من نغلق على أنفسنا بقية المنزل، وبقية العالم، أو في أي مكان آخر غير غرفته. ولكي نخرجه من هناك - صاح أحدهم مُلخّصًا الموقف وسط صمت الآخرين - سوف يكون علينا طرق الباب، ودخول عالمه أولاً.

هل سمعتُ شخصًا ما يقول ذلك أم أنني أسمعُ الآن لأول مرة؟ هل كنتُ بحاجةٍ لعزل نفسي في هذه المدينة القديمة، وفي حاجةٍ لكتابة القصص القديمة، حتى أسمعُ أخيرًا ما كان يجب على أبي وأمي قوله، وشكهما الحاد، وعدم يقينهما الثاقب؟ ولما طُردتُ من غرفةِ أخي منذ سنوات عديدة، لماذا لم أعرف كيف أعود إليها؟ لماذا انتظرتُ هطول الكثير من المطر، ومرور الكثير من الليالي، والكثير من فصول الشتاء، لكي أعود إلى قرع بابه، كي أكون أكثر أخوة لشقيقي، كي أعانقه مرةً أخرى؟ لماذا لم أستطع أن أنسى أبدًا، لماذا رغبتُ في الهروب بعيدًا، وباسم من، ولمصلحة من، وكراهية لمن، وبحثًا عن من؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

42

أنتم تتحدثون كثيرا، تتحدثون كثيرا ولا ترون.

يا له من تحوّل قوي ذلك الذي يحدث في عقل شخص ما، وبالها من عملية مكثفة تلك التي تكون وراء تعبير خالٍ من الإحساس، مع عيون شاغرة، ووجه يملؤه الجمود. في الجسم الذي تتجسد فيه كله اللامبالاة، في الجسم الذي لا تصدر عنه أي كلمة أو إيماءة، في الجسم المفرغ بالقوة، هناك شيء يتغذى في كثير من الأحيان، هناك شيء يبقى ليكبر في صمت. هو شيء لم يعرفه أحد منا، شيءٌ ما لم نتمكن من تمييزه في الوقت المناسب. لم يلحظ أحدٌ منا نفاد صبره المتزايد، ولم يكتشف أي منا ارتجاف أصابعه وهي تعد الأيام في قلق، والشوق الذي كان ينتظر به أخي كل دردشة جديدة مكبوتة، كل جدال جديد، كل جلسة لعلاج.

t.me/qurssan

أنتم تتحدثون أكثر من اللازم، تتحدثون ولا ترون؛ كان هذا اتهامه لنا ذات صباح عندما كنا بالكاد نرى بعضنا البعض. صباح كان كل واحد يستعد فيه لمواصلة طريقه المعتاد. كنّا على الطاولة نشرب القهوة عندما أطلق عباراته المفاجئة، كمن يُلقي قنبلةً يدويةً أو تفاحةً أرجنتينية، كما لو كان يحتاج منذ زمن طويل لمن يسمعه. في غضون ثوان كنا جميعًا في غرفته أخيرًا، ونشغل كل المساحة المحظورة علينا، مستندين على الحائط، وعلى السرير، وعلى المكتب، مشدوهين من حماسه، متابعين أو محاولين مواكبة التدفق غير المسبوق لكلماته الغزيرة التي جعلتنا مشلولين، ومُخَدَرين. أنتم تعرفون أو تتظاهرون أنكم تعرفون الكثير ولا تفهمون. لا تفهمون ما يعنيه أن تعيش هذه الوحدة الرهيبة، وحدة سخيفة لأنها تحت الحصار، وفيها إصرار، واستمرار. أنتم لا تعرفون ما تعنيه معاناة هذا الشلل، وأن يعرف الجميع أين يذهبون بينما أبقى أنا هنا، في المكان نفسه كالعادة ورغم ذلك أشعر بالضياع. أقف خلف الباب، والمفتاح في يدي، غير قادر على أن أفتحه. لا يمكنكم أن تتخيّلوا ما هو إحساس أن يمنعك الباب من الدخول والخروج، وأن تجذبك هذه النافذة الضخمة إليها، وباب الشرفة الزجاجي الضخم إليه، وهذه الشرفة نفسها تجذبك إليها، ولم تجربوا الانكفاء على الوجه في تلك الشرفة بعد يوم كامل من الفراغ المطلق، ولا جَرّبتُم أن تنكفئوا على الأرض لتسمعوا أي صوت

t.me/qurssan

مُقبل، ولا جَرّبتُم الشعور بالدوار. أنتم لا تعرفون ما هو الخروج في الليل، الخروج بعد كل هذا الحزن دون تَدَبّر، وطلب أي شيء قوي تشربه، والشعور بتأثير تلك القوة وأن تستمر، فتطلب هذا الشيء مرةً أخرى وتستمر، أنتم لا تعرفون ما معنى أن تريد تدمير نفسك.

لم تكن هذه هي الكلمات: أعرفُ القليل عن الكلمات، لكن كان ما يقوله أخي شيء من هذا القبيل. كان مضطربًا كما لم نره من قبل، تهيم عيناه في سماء الغرفة، غير مستقر على وضع معين، ولا على بؤرة لنظره الحائر، ولا يمكن لأحد أن يحتوي فضفضته. أنتم قلقون - أعلمُ ذلك - أنتم أيضًا حزانى، لكن حزنكم يدوم دقيقةً ويزول، ساعةً ويزول، لكنكم تنصرفون عني وتشغلكم الحياة. ثم تَوَجّه بالحديث إليّ أنا وأختي: في يومٍ ما منذ وقت طويل، ويتبدل الغضب في عينيه ويصبح حزنًا، في يومٍ من الأيام انصرفتما عني، واصلتما حياتكما وتركتماني للوحدة هنا. كنّا مجتمعين في ذلك اليوم، في يوم نجتمع معًا ولكن في يومٍ آخر يذهب كلّ واحد إلى حال سبيله - هذا مشغول بالأدب وذاك بالطب، وبأي عذر يعتد به.

لا يمكنكم فهم الموقف. إنه مثل إبرة يحاول شخص ما إدخالها في وريدك، ويبدو أنه لا نهاية لها. وعلى مدى ثلاثين عامًا هناك من يدسّ هذه الإبرة تحت الجلد؛ لأكثر من ثلاثين عامًا هناك

t.me/qurssan

من يُدخل هذه الإبرة في وريدك دون أن تفهم، أنت فقط تشعر بالألم ولا تعرف من أين يأتي. وحينما تنتبه، عندما ترى أخيرًا: فلن تنفعك محاولة إخراج هذه الإبرة لأنها الآن جزء من ذراعك، فهناك خوف متزايد من أن يظهر شخص آخر يريد خلع الإبرة وينتهي به الأمر إلى انتزاع جزء من جسدك. وبينما كان أخي يضرب ساعده براحة يده، كان جلده يزداد احمرارًا شيئًا فشيئًا. وبينما كنتُ أحاولُ فهم أي إبرة كانت، ومن كان هذا الشخص الذي دَسّ الإبرة في ذراعه، وما المادة التي كانت تسكبها في وريده، ومن يكون ذلك الآخر الذي قد ينتزع ذراعه بهذا العنف، بينما كنتُ أحاولُ فك طلاسم ما لم أكن أفهمه، ولن أكون قادرًا على فهمه: أطلق أخي الجملة التي لم أستطع نسيانها، العبارة التي جاءت بي إلى هنا: حول هذا الموضوع يجب أن تكتب يومًا من الأيام، عن التَبَنّي، لابُدّ وأن يكتب أحدكم كتابًا.

بعد ظهر ذلك اليوم لم نترك المنزل، لكننا لم نعد إلى تلك الغرفة، ولم يعد أخي إلى الغرفة، بقينا جميعًا في الصالة بينما كان يتصل بأصدقائه المقربين، بلهجةٍ متعجلةٍ جعلتهم يأتون جميعًا بسرعة. أردتُ فقط أن أخبركم بأنني مُتَبَنّي - شرح أخي الموضوع بخليطٍ من الجد والحزن - بصوتٍ مخنوق متهدج، وكأنه يُخبر عن عارٍ لا يمكن تفسيره ولا يستطيع إخفاءه. ربما لا يجبُ أن أعتمد كثيرًا على ذاكرتي، وربما تكون انطباعاتي كاذبةً؛

t.me/qurssan

لكنني أتذكر أنه في تلك المناسبة لم يكن هناك ضجة أو إحراج، ولا نظرات مكسورة، ولا هموم لا لزوم لها. وماذا في ذلك؟ سأل أحد الأصدقاء، وهو يفرد ذراعيه ويضم كتفيه. وأضاف الآخر ببساطة: وما الفرق إذاً؟ نحن نعرف منذ فترة طويلة، ولكن من يهتم لذلك؟، لم نهتم على الإطلاق ولا حتى بالقدر القليل؛ قالها ثالث وهو ينهض استعدادًا للمغادرة.

هل كان ما يشعر به أخي عند مغادرتهم هو شعور بالراحة أم بالإرهاق فقط؟ إذا كان تعبًا، فلابُدّ أن يكون جاءه قبل أحداث ذلك اليوم، قبل الاضطراب اللفظي بكثير - كان هذا تعبًا قديمًا. في هذه الليلة، بالرغم من إرهاقه، وبالرغم من النشوة التي جعلته يُلقي بنفسه على الأرض غير عابئ، لم ينم أخي في غرفته. وضعنا فراشًا بجانب سريري، واستلقى فترةً طويلةً لحظت فيها أنه لم يغمض له جفن، وأعتقد أن عينيه لم تكونا تائهتين، كانت عيناه سطحًا زجاجيًا فوق سائل عميق. عندما استيقظتُ في منتصف الليل شعرتُ بلمساتٍ على جسدي، كان ذلك هو ذراع أخي يمتد من فراشه إلى فراشي، كانت يده تتكئ على صدري.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

43

أعدتُ الآن قراءة سرد هذه الحلقة، التي بلغت فيها الحكاية ذروتها، وأندم للحظة أني نسيتُ الحديث عن الدموع. كما لو كان الحديث عن كَمّ بكائنا بينما كان أخي ينفجر في الكلام يمكن أن يُغير معنى كل شيء، أو يمكن أن يُزيد من جِدّة الموقف. ثم عدتُ لنفسي ورأيتُ أن أعطي الموضوع اهتمامًا لأن الدموع تهمني، فلماذا أرغبُ في اللجوء لهذه التقنية السهلة في صنع الدراما. ولماذا أشعرُ بجاذبيةٍ نحو الصوت الذي يتهدّج، ولماذا تروق لي الجفون المغرورقة بالدموع إذا كنتُ طوال حياتي أناضل ضد هذا الاستطراد الذي لا مفر منه، ضد المغالاة في المشاعر، وضد الضعف. لكن البالغ الذي يبكي ليس ضعيفًا، تعلمتُ ذلك عن اقتناع. هذا الدرس لم أنساه أبدًا: البالغ الذي يبكي دون أن يشعر بالحرج يمتلك شفافية يُحسَد عليها. وأتساءل، أليست قلة اهتمامي بالحالات الحزينة والمشاهد الكئيبة هو نتيجة لهذا

t.me/qurssan

الحسد الذي أصابني، وعدم اهتمامي بمظاهر الفرح والعطف في علاقتنا العميقة جدًّا؟

ومع ذلك، ليس هناك الكثير من الأفراح في القصة التي تحضرني الآن. كان عمري أربع أو خمس سنوات، كنتُ أتأرجح على أرجوحة بينما كان أخي مضجعًا. كان أكبر مني وأقوى، وطلب مني أن أتسلق جدارًا منخفضًا لمجرد رغبته في ذلك. ولأنه الأقوى، أصرّ. فسقطتُ وأنا أحاول جاهدًا دفع قطعة قماش ثقيلة تتأرجح، واصطدمت بأرضية إسمنتية صلبة. ومن خلال صراخ أخي وسرعته الجامحة؛ فهمتُ أن الحالة كانت خطيرة. وفي لحظة وجدتُ نفسي مُحَاطًا؛ أخذني خالي في حضنه وذهبنا في الطريق إلى المستشفى. كان ساعدي مكسورًا إلى نصفين، هذا ما قاله الطبيب أو خالي، ولابُدّ من ربط الجزءين ببعضهما في الحال. ولأنني كنتُ قد تناولت الغداء للتو فلم يقم بتخديري، وقال إن الألم الذي سأشعر به سيكون قويًّا لكنه سرعان ما يزول، فهي مجرد صدمة في الذراع. عندها، كان صراخي مدويًّا يتجاوز الجدران والممرات، ولكن سرعان ما زال الألم، وسرعان ما هدأتُ، ورأيتُ في خالي رجلًا مُعتدًا بنفسه.

لم يذرف دمعة واحدة - هذا ما قاله خالي عني عندما وصلنا للبيت، وكان يحكي ذلك الموقف كلما جاء ذكر هذه الحادثة، وفي كل مرة يريد إرضائي فيها. بعد فترةٍ وجيزة نما إلى علمي، لأن أختي

t.me/qurssan

أخبرتني في السر، وبفخر أيضًا، أن أخي بكى عندما كنتُ في المستشفى، وأنه يشعر بالذنب أو الندم وأنه اعترف بذلك والدموع تجري من عينيه، وأن أخي عانى الكثير من أجلي حتى أننا كنا نواسيه. ثم فهمتُ لماذا ظهرت هذه الحلقة من جديد في ركنٍ من الذاكرةِ لا يُسبر غوره، برزت من ضخامة الذكريات والصور، وقطعت تسلسل هذه القصة. في تلك الليلة كنتُ أنا الذي يريد النوم بجانبه؛ فَقَرّبتُ فراشي من فراشه، واتكأتُ بذراعي السليمة على صدره.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

44

أسير في شوارع بوينس آيرس، ألحظ التسلسل الذي لا يمكن تمييزه للواجهات، وألحظ أسماء الشوارع: "بلجرانو"، "ساراندي"، "كارلوس كالفو". أمشي دون أن أعرف أين أنا، أرسمُ دوائر مستقيمة في المدينة المربعة. أنا تائه لكني أرفضُ التسليم بأني تائه، وأُبطئ في تصديق أنني مفقود في خضم هذه الدقة الطبوغرافية. إذا كنتُ تائهًا وأنا أمشي في دوائر في مثل هذه المدينة المنظمة، أتروى أثناء السير، ذلك لأنني لا أريد الوصول إلى نقطة مركزية، ذلك لأنني أقاوم الوصول إلى الوجهة التي اخترتُها، ذلك لأني أهربُ من شيءٍ ينتظرني في نهاية المطاف.

ثم أرى لوحة باسم "شارع فيراي سيفالوس" وأستطيع أخيرًا أن أعطي بعض الإيقاع لخطواتي. أكتشف أنني وجدتُ ضالتي عندما رأيتُ البعض يرافقني، وأمشي في صحبةِ أرجل خفيفة أخرى. حشد صغير يجتمع أمام مقر "جدّات ميدان مايو". أستطيع أن

t.me/qurssan

أرى على البُعد نشاط أذرعهم المضاعف، وأشعر في صدري بذبذبات صراخهم. وبشيءٍ من الجهد، أخذتُ أشقّ طريقي بين الناس، لكن سرعان ما شعرتُ بالتعب وتركتُ نفسي بين الحشود، وجعلتُ من جسدي عنصرًا إضافيًا في كتلةِ البشر. وبرغم أني لم أشعر بالبرد من قبل، شعرتُ الآن بالدفء الجماعي. لم أعد أحاول الوصول إلى الباب، فأنا أقف على بُعد خطواتٍ قليلةٍ من المدخل، وفي راديو أحد الرفقاء كان الخبر الذي جمعنا يتكرر، تم اليوم الإعلان عن العثور على حفيد آخر. إنه فقط الحفيد رقم 114، وما زال أربعمائة من أحفادهم مفقودين، أربعمائة من الأطفال المختطفين بعد الولادة، أربعمائة مصير مجهول. إنه مجرد الحفيد رقم 114، يصرخ المذيع بحماس، ولكن هذه الحالة لها قيمة رمزية، إنه حفيد "إستيلا دي كارلوتو"، الزعيمة التاريخية للجدّات. مرت ثلاثون عامًا، وأكثر من ثلاثين عامًا من البحث والانتظار والقتال والمثابرة، أكثر من ثلاثين عامًا بلغت نهايتها بعد ظهر هذا اليوم.

وعلى شاشةٍ مؤقتةٍ من القماش عند النافذة تظهر صورة سيدة؛ بشرتها الوردية تناقض العيون الغائرة، لها ابتسامة صريحة عريضة، شعرها أبيض ثائر، وما إن بدأتْ الحديث حتى ساد الصمت الجميع. كانت تحتفل بصوتٍ واثقٍ فاق كل تخيّل، بالفرح الكبير الذي أهدته لها الحياة، وبالمعركة الطويلة جدًا

t.me/qurssan

التي انتهت بالفوز، ونصر مستحق للعدل وللحقيقة. لديها اليوم عائلتها كاملة، أو كادت؛ الكرسي الشاغر بوسعه الآن أن يُشْغَل، والبراويز الفارغة التي طال انتظارها ستملؤها صوره الآن. وها قد رأيتُ وجهه، إنه جميل - تقول السيدة دون أن يتغير وجهها، ودون تأخير أي جملة - كان وجهها الهادئ تُحيطه الأجسام الحانية لأولئك الذين يدعمونها. إنه وسيم، وقد جاءني، وما قالته الجدّات قد تحقق؛ سوف يبحثون عنا. القصة الكاملة التي لا نعرفها بعد، يَتَعَيّن علينا تجميعها. ولكن هذا رد قوي على كل الذين يقولون: كفى، لأولئك الذين لا يزالون يشككون في معركتنا. لأولئك الذين يريدون منا أن ننسى، وأن نقلب الصفحة كما لو لم يحدث شيء. في هذا إصلاح، نعم، بالنسبة له، بالنسبة لي، وهو أيضًا للمجتمع بأسره. لكنه ليس إصلاحًا شاملًا، من الضروري الاستمرار في البحث عن المفقودين، إن الجدّات الأُخريات يجب أن يشعرن بما أشعر به اليوم. على أية حال، شكرًا: فقط ما كنتُ أريده هو ألا أموت قبل معانقته.

عندما تدور كتلة البشر في دوامة من الصراخ والتصفيق، ألحظ أنني لا أستطيع إلا أن أصرخ وأُصفق، ولا أستطيع السيطرة على يديّ وشفتيّ. في الخلفية شخص ما يهتف تحيةً لجميع المفقودين، وجميع السجناء، ونحن معًا نُردد الهتاف المعتاد، ونؤكد معًا أنهم موجودون ويبقون موجودين الآن وإلى

t.me/qurssan

الأبد، حاضرين بيننا الآن وعلى الدوام. هناك شيء من النشوة يسود المكان، وحماس يتجاوز الأكتاف، يستشعره المرء يتناقل بين الأذهان، وهناك ضجة جماعية لم يكن أحد يتنبأ بها. ويُسمع صوتُ مذيع الراديو يجتهد في وصف الحدث، وهذا الفصل البليغ من تاريخ الوطن، هذا الانتصار المتأخر ضد الإرهاب والنسيان: هذه النهاية السعيدة عكس كل التوقعات، وهذا الشعور بالمصالحة في البلاد.

وعندما انتهى الصراخ، وعندما خشعت الأصوات، وعندما تفرق الحشد من حولي؛ وجدتني أعود إلى المشي وحيدًا، أشعرُ أنني لم يبق لدي الكثير من هذه النشوة. أشعرُ بالسعادة، بعدما أوفيتُ برغبتي في أن أكون هناك، لأُتابع عن كَثَب هذا الحدث، وأنني حضرتُ وتضامنتُ واختفيتُ بين الجموع. كما أنني سعيدٌ للآخرين، لكن سعادتي يشوبها بعضُ القلق. هناك في صدري الفارغ من الصراخ شيء من الحزن. فلم أستطع دخول مقر الجدّات، وقفتُ خارجه أشاهد ما كان يحدث، ولا يبدو أن الأسف الذي يُسيطر عليّ هو مجرد نزوة. ولما اجتزتُ الشوارع؛ استمعتُ إلى صوتها، واستنشقت هواءها البارد، لم أعد أنخدع بالتحريض الجماعي، حتى لو ظهرتُ هناك، حتى لو تحوّلتُ إلى شبح يتسكع على نواصيها، فأنا غائب وسأظل دائمًا غائبًا عن

t.me/qurssan

المصالحة الوطنية، سأكون دائمًا مُتَابِعًا للأحداث الأرجنتينية، لكن عن بُعد.

ثم أفهم، أو أعتقد أنني فهمتُ، لماذا صنعتُ من خوفٍ بعيد خيالًا مهيبًا. لذلك أنا أفهم لماذا أبحث عن "الجدّات" كثيراً، ولماذا ألجأ إلى مقرهن الكبير، ولماذا أزور مواقعهن المقدسة، ومتاحفهن ونُصُبهن التذكارية. لماذا أدرس قصصهن بثباتٍ كبير، لماذا أشرع في التّحقّق من وجوه بناتهن، ولماذا أصر على كذبةٍ محتملةٍ، ضد كل الأدلة، وفكرة أن أخي يمكن أن يكون من أولئك الأحفاد المفقودين. هذا لن يكون له معنى في حياته، لقد خمنّتُ هذا الأمر مرّةً من قبل؛ وهذا لن يُخرجه من سكونه البغيض، وحاضره الفارغ. إنه أنا، وليس هو، الذي يريد أن يجد معنى للحياة، وأنا الذي يريد أن يسترد سكونه، وأنا الذي يريد أن ينتمي إلى المكان الذي لم أكن أنتمي إليه أبدًا. أفهمُ أخيرًا، وأجد نفسي أخيرًا، وأقرر أخيرًا المغادرة، لن يعود لي أي مكان، ولن يعود إليّ ما عشته من قبل، ولا يبدو أنه يوجد شيء يمكن إصلاحه في شخصيتي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

45

يا له من وقت لا يمكن قياسه؛ إنه وقت الكسل، وقت البُعاد، وقت الصمت، لأنه يختلف عن وقت اللقاء، الذي تختلط فيه الأصوات، وتتلاقى فيه الوجوه. أعبرُ المدينةَ بجانب أختي، أشاهدُ من جديدٍ المناظرَ التي هجرتُها. أنظر بدهشةٍ إلى النهر القذر الذي يحاذينا، ولا ألوي على شيء، ولا أتأمل في شيء، ولا أعبأ بشيء. إن وقت اللقاء يدعو إلى التّخَلّي عن الأفكار، وكأنه صُنع من مادةٍ نقية، من أصابع رقيقة تمسك بعجلة القيادة، وشفاه تنفرج عن أسنان عندما تضحك. أعبرُ المدينةَ بجوار أختي وأترك نفسي لنشوةِ التعايش مع الآخر، أسمع الحكايات الحديثة التي ترتجلها بإثارة، وأعجبُ بغزارة أيامها، ووفرة أحداثها. أتعامل مع هذا الوضع بالمثل، أشكرها مُجَدّدًا على حُسن الاستقبال، وأحكي لها بشكلٍ غامض عن الموسم الذي ينتهي، وأنهي التجربة البطيئة لمدينة بوينس آيرس وأنا أتحدث عن تفاهات الحياة.

t.me/qurssan

نتحدثُ عن المنزل الجديد الذي اشتروه في عجلة من أمرهم، وعن مشاكل الإصلاح التي تتعقد، وعن قلق مرضاها الذي لا ينقطع. كل شيء في خطابها يُوحي بالاستمرارية، وبحاضر كبير، وحياة مقبلة. تريدُ أن يكون لها ابن آخر قريبًا. فقد بلغ ابنها "ميجيليتو" الثالثة من العمر، كاد يكون مراهقًا. تطلقُ الدعابة ثم تتبعها بالضحك، وهو يقول كل ما يتبادر إلى ذهنه، ويخترع أشياءَ لا أعرف حتى من أين يأتي بها. إن الشبه الذي بينه وبينك أمر مدهش حقًا - تقول هي ذلك - جسديًا أقصد، وسلوكه يُشبه سلوكك فيحمرّ وجهه عندما يكون عصبيًا أو غاضبًا، كما أنه يشبهك في حُبه للدّمى، وحُبه لكل أنواع الكتب أيضًا. ثم تتطرق للحديث عن أخينا، الذي أصبح خالاً: لابُدَ أن ترى كيف هو مع ابن أخته، كيف ينطلق، ويقضي ساعات مستمتعًا مع الصبي، وهو يلصق خده بخده، ويُعَلّمه أشياءَ لم أكن أعرفها حتى، هو مثير للإعجاب، وكأنه يشعر بالانبساط.

للحظة لا أجد ما أجيبها به؛ لأني لا أعتني بمثل هذه الأشياء. ينتهي الحوار بصمتٍ طويل، وينتهي بي المطاف إلى التأمل من جديد، وفحص المشاعر بهوس. أعتقد أنني أهملتُ أختي، واشتغلت عن أمورها، واستسلمتُ لأوهام أخرى كنتُ قد هجرتها. مثل الحديث عن الأُسرة، والتأمل عندما تجوب السيارةُ المدينةَ الرمادية، والكتابة عن الأُسرة وأن التفكر في حالها لا يساوي أبدًا

t.me/qurssan

معايشتها ومشاركة شئونها الروتينية، ومعايشة حاضرها. أفكر بأشياء كثيرة في الوقت نفسه، إذا كنتُ لا أعرف الأُسرة، إذا كانت فكرتي عنها صارت ضئيلة، وأن هذا الكتاب قديم. أفكر في الوقت نفسه، كم سنة قضيتها في كتابته، وكم شهرًا عزلتُ نفسي، ومنذ متى لم تصبح الحكايات هي نفس الحكايات، وهل انتهت فيها الصراعات؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

46

وعلى المائدة نفسها التقينا. كنا خمسة في هذا المرة. الساعة تخطت التاسعة وما زلنا نتسامر. لم نعاود هذه المرة حكاية القصص القديمة الجادة، وأمسى الحديث بيننا عبارة عن استرجاع المواقف الطريفة اليومية، والسخرية من المكدرات الصغيرة، ونتبع ذبذبات أصواتنا لمعرفة ما إذا كنا نعرف بعضنا البعض، ونألف بعضنا البعض. لحظتُ بعد سنوات كثيرة، أننا أصبحنا برازيليين أكثر من ذي قبل، وابتعدنا أكثر عمّا كنا عليه من قبل، أصبح طبق الحلو بعد الطعام هو الفواكه التي تُزَيّن أطباقنا بالألوان، وليس التلويح بالأيدي بخفّة، ولا الثرثرة بالكلمات اللاذعة.

ولم تتغير لهجة الكلام إلى الجد إلا بعد أن غادر أخواي، وبدأنا في احتساء الشاي للمرة الثانية. وكان والديّ قد قرأا الليلة الماضية الكتاب الذي أرسلته إليهم، وسهرا الليل يقلبون

t.me/qurssan

صفحاته، ولبعض الوقت كانوا يقومون بصياغة ما يمكنهم التعليق عليه، وكيف سيتعاملون مع هذا الوضع الغريب إلى حَدّ كبير. وبالطبع لم تكن ملاحظاتهم أدبية بحتة، واستدرك كلاهما كما لو كانا يطلبان المعذرة، وطوال وقت القراءة كانا يشعران بازدواجية غير عادية، شَعَرَا بأنهما مُمزقَيْن بين كونهما قُراء للرواية وشخصيات محورية فيها، وأخذا يتأرجحان بين حكايةٍ وأخرى إلى ما لا نهاية. هذا غريب - تقول أمي - عندما تتحدث عن الأم أرى وجهي، وعندما تتحدث الأمُ أسمعُ صوتي، لكن سرعان ما يتغير الوجه ويتشوّه الصوت، ثم لا أجد نفسي بعد ذلك. لا أدري إذا كانت هذه المرأة هي أنا، أشعرُ بنفسي ممثلةً هنا ثم لا أشعر، ولا أعرف إذا كان هذان الوالدان هما نحن أم لا.

هناك دائمًا مسحة حزن في كتاباتك - تصر أمي - وأشعر أنا بالأذى. أتفهم ميلك لتكثيف الأحداث، لكنني لا أعرف ما إذا كنت أفهم لماذا يجب أن تكون حزينةً إلى هذا الحد. أنت لا تكذب مثلما يكذب الكُتّاب في كثير من الأحيان، ولكنه كذب على أية حال. لا أدري، ربما أردتُ فقط أن أدافع عن نفسي بهذا التعليق، لكنني أشك في أننا لم نكن هكذا، أعتقدُ أننا كنا أبوين أفضل من ذلك. شَعَرنَا بالألم قليلًا من أجل أخيك، هذا صحيح، وأنت مُحقّ في تسلسل الأحداث. كنتَ أمينًا قدر المستطاع فيما يخص عدم استقرار ذاكرتك، ولكني أتساءل: هل وصلت حالته

t.me/qurssan

إلى هذا الحد من السوء، هل تدهورت حالته لهذا الحد في أي وقت مضى، هل كانت حالته مينوسًا من علاجها، وهل مكث تلك الفترة الطويلة في غرفته لا يمكن الوصول إليه. أتذكر ولا أتذكر الكثير مما ترويه من مختلف الحلقات القاسية، لكن التزامك بالصدق واضح، وهو التزام لا أستطيع تفهمه. من جهةٍ أخرى لم أفهم جيدًا لماذا فضّلت استغلال الصراع مع الطعام، وقلب حكاية زيادة وزن أخيك وتصويره نحيفًا للغاية. لكني أُقَدّر لك على كل حال، أنك رسمت خطًّا منحرفًا بوضوح في الرواية، وهو أثر لانحرافات أخرى كثيرة، وأعجبني أنك لم تُصَوّر كل ما حدث في الحقيقة ولم تحاول نسخه كما هو.

ولأن أبي كان صامتًا، ولأنه لم يقاطعها أبدًا للتعبير عن أي خلاف أو رأي مضاد، ولأنه يُومئ برأسه دون إيلاء الاهتمام الكافي لما نقول؛ عرفتُ أن رأيهما متفق عليه، وأنهما تقاسما الأدوار، وتناقشا في رد الفعل الأكثر ملاءمة. يجب أن أعترف أن بعض المعلومات غير الدقيقة كانت تزعجني - يظهر أبي على الساحة، ويأخذ الكلمة - لم يكن لدي أي أسلحة تحت السرير، نعم لقد احتفظت بأسلحة في المنزل، لكن كيف أُخزنها تحت السرير في مثل هذا المكان الواضح. وذلك العشاء الذي تصفه ثم تُلَمّح إلى التعذيب، وغياب الأصدقاء في هذا العشاء، لم نكن مذعورين أبدًا لهذا الحد. كانت أوقاتًا صعبة، وكم من عشاء أُلغي. ما أعنيه

t.me/qurssan

هو أنني أشعر بسذاجة هذا المناضل الذي تصفه، ولا أريد أن أعترف في نفسي بهذه السذاجة. وكوننا نناقش الكتاب في نهايته، وأن نظهر منتقدين له، ونقوم ببعض التعديلات فيه، ونُرَكّز على المخالفات، قد يكون ذلك حيلة خادعة، لكنني لا أعرف إذا كان سيبدل من الأمر شيئًا.

إن المشهد الذي يحدث في "وايت ووتر بارك" مشهد سخيف - يُضيف والدي، ثم تشير أمي إلى توافق مؤكد بينهما - كيف لشخص، في وضح النهار، في الحديقة، أن يُخرج قنبلةً يدويةً من حقيبته؟ أعتقد أن هذا المقطع يفتقر إلى احتمال الحدوث - يقول والدي - وللحظة لم أستطع احتواء غضبي: لكن الأمر كان كذلك، أنتما أخبرتماني بذلك. أعتقد أنني أذكر جيدًا هذه الحكاية، ولسبب ما ظلت عالقةً في ذهني. كما أن هناك العديد من القصص الغريبة في مسيرتكما وأدعي أن هذه ليست القصة الوحيدة الغريبة. وقد اضطررتُ لحذف بعضها نظراً لأن أي قارئ لن يقبلها، فكيف يقبل مثلاً أنكما عُدتما إلى الأرجنتين في أوج حُكم النظام الديكتاتوري، مُتخفيين ومُعرضيْن للقبض عليكما، كيف يقبل القارئ أنكما خاطرتما بحياتكما لمجرد محاولة تَبَنّي فتاة؟ حسنًا - توافق والدتي - يمكن أن يحدث، أيًّا كان، قد يكون اجتماع الحديقة حدث بالفعل، ويقبل أبي ويومئ تلك كانت سنوات صعبة التصديق حقًا.

t.me/qurssan

في باطن الأمر أعتقد أننا نتحدث عن أشياء أخرى، نخترع المعوقات، لأن هذا الكتاب يُقلقنا بعض الشيء، لابُدّ أن نعترف، نحن قلقون بشأن الإفراط في عرض الأمور. ويستطرد والدي ليطرح تلك الأسئلة، ما الذي نكسبه من هذا الوصف الدقيق لجروح قديمة، ما الذي يعود علينا من هذا الحصر العلني لصراعاتنا؟ إذا كان أخوك في حفلاته فَضَحَ المنزل لكثير من الناس، وإذا كان ما وصفته به هو غزو لحياتنا الخاصة، فما هي الفضيحة التي تبحث عنها الآن، وهل هناك غزو أكثر من هذا لخصوصياتنا؟ حينها التزمتُ الصمت، ولم أجد حُجّةً تسعفني كي أحتجّ بها، لكنني أدركتُ أن أمي تشير إلى والدي بأن يُخفف من حِدّة الخطاب، وعلى ما يبدو أنها أنكرت عليه نبرته الصارمة. ثم طلبت علنًا منا الهدوء، لا داعي لأن تثور ثورتنا، ليست هناك حاجة للحديث بهذه الطريقة، ولا يلومك أحد على كتابة الكتاب.

أنا أفهم، بالطبع - يمضي أبي بهدوء - أن هناك الكثير من التفاصيل لكلّ شيءٍ نعيشه، وأن الكتاب هو شكل آخر من أشكال العلاج، وأن القصة العاطفية تأخذ شكلها بهذه الطريقة. ولكن في هذه الحالة ألا ينبغي أن يبقى هذا النص بيننا، نقرأه، ونُفَسّره، ونناقشه معًا؟ أنا أعلمُ، وجميعنا يعلمُ أن الكتاب يتمتع بقدرٍ كبير من العناية، ويمتلئ بالمودة، وأعلمُ أن الازدواجية لا تقتصر علينا؛ بل إن الكتاب أيضًا به معاني مزدوجة في كل

t.me/qurssan

سطر. لذا فهناك أوقات، يُصيبني فيها الشك، ولستُ متأكدًا من أنه ينبغي أن يُنشر على نطاقٍ واسع. ولا أريدك أن تسترشد بما أقول، هذا ما لم أرغب فيه أبدًا: إمضِ قُدُمًا "سيباستيان"، لقد فعلت ما عليك، وحتى أنه من الممكن أن يجد أحدهم في هذ الكتاب روايةً جيدة.

t.me/qurssan

47

أنا ولست أنا الرجل الذي يعبر الممر. أشعر ولا أشعر بثقل رجليّ وهما تتحركان، أسمع ولا أسمع وقع قدميّ على الأرض. في الذاكرة التي لا تُمحى لجسمي هل ما زلتُ أحتفظُ بالصبي الذي تردد كثيرًا عند هذا الباب، الصبي الذي كان يومًا ما، أم هل أنا فقط الرجل الذي يأتي عند الباب ويُلَوّح بقبضته في الهواء بثبات؟ إن الأمر لا يستغرق وقتًا، لا يستغرق قرع الباب شيئًا تقريبًا، إنها مجرد نقرات خفيفة بأربعة أصابع على درفة الباب، ورغم ذلك فإن فيها رنين الماضي الفسيح، فيها أصداء رحلة طويلة من المخاوف والاضطرابات. أقف ولا أقف أمام باب غرفة أخي، أحمل ولا أحمل حزمةً من الورق تحت إبطي، لستُ متأكدًا مما أفعله عندما أكون هناك، إذا ما كنتُ أبحث عن حضنه، أم جئتُ أطلبُ مغفرته.

t.me/qurssan

أنتظر وبينما أنتظر، تساورني مخاوف لا يُسبر غورها. لستُ أدري ما الذي جاء بي. ليس الخوف هو الكلمة الدقيقة، لكنني أعتقد أنني أشعر بعدم الأمان القديم يهاجمني. أعتقد أني جئتُ لأسأله إذا كانت هذه الصفحات تستحق أي شيء. هل سيكون الكتاب الذي ألّفته جيدًا بما فيه الكفاية، هل سيكون محسوسًا؟ هل أُلَبّي بهذا الشيء طلبه القديم، وأُسَلّم أخي ما طلبه مني يومًا ما، أو ما اعتقدت أنه أراده ذات يوم، هل شَوّهتُ منذ زمن بعيد أيّا من رغباته، هل اختلقتُ رغبته تلك لأجعل نفسي أكثر قدرة على التعبير عن مشاعري؟ وبعد ذلك، عندما تُعطي الخطوات التي أسمع وقعها على الجانب الآخر إشاراتٍ جديدة للخوف، لم يعد الكتاب هو الذي يقلقني، لم يعد الكتاب يهمني. وفجأةً كنتُ أنا، الفتى أو الرجل البالغ، الذي يجعل من نفسه موضوعًا للبحث والتمحيص، إنه أنا الذي يجب أن يرد على أصداء الزمن الرصينة. وحينها لم أعد أعرف إذا ما كنت كفؤًا، إذا كنت الأخ المحتمل، إذا كنت جيدًا بما فيه الكفاية، إذا كنت صادقًا، إذا كنت حسّاسًا.

يفتح أخي الباب ولا يأتيني بالجواب: وفي حضرته تتبدد الأسئلة. إن أخي شخص متزن يقف بجانبي، إنه ذراع ممتدة تدعوني إلى الدخول، غرفته هادئة بشكلٍ يُدهشك. كان بلا قميص، وجسمه لا هو بالنحيف ولا بالسمين، وكانت ندبته عبارة عن خط عريض

t.me/qurssan

لا يكاد يظهر. لحظتُ أنني أهرب من عينيه، ولا أريد النظر إليهما. أدخل الغرفة مطأطئ الرأس فيبدو كأنه احتلها، كما لو أنه لم يكن هناك مجال لشيء آخر غيره، ولحظتُ أن الغرفة لا تتسع للكلمات. في ثوانٍ سوف أُقَدّم له الكتاب، وربما تجد الكلمات مكانها. الآن فقط، نعم، أنظر إلى أخي، أرفع رأسي فأجد أخي هناك، أفتحُ عينيّ جيدًا فأجد أخي هناك، أريدُ معرفة أخي، أريدُ أن أرى ما لم أستطع النظر إليه أبدًا.

t.me/qurssan

يجب على المرء أن يتعلم المقاومة. لا يذهب ولا يبقى، فقط يتعلم المقاومة. أفكّر في هذه الأبيات التي لم يكن بوسع أبي أن يُفكّر بها، أبيات دُوّنت في ذلك الوقت، أبيات كان يفتقر إليها. أفكّر في حال والدي في آخر اجتماع سري استطاع أن يحضره، وهو هادئ بين المناضلين المتحمسين، شارد من صخب الأصوات. نقاوم. وهل من المقاومة أن نقبل المصائب بشجاعة، وأن نصمت عن التدمير اليومي، ونقبل بدمار القريبين منا؟ وهل تكون المقاومة بتحمل سقوط الآخرين وأنت واقف، وإلى متى، حتى تنهار السيقان؟ هل تعني المقاومة النضال برغم الهزيمة الواضحة، والصراخ بالرغم من بحة الصوت، والإصرار برغم وهن الإرادة؟ يجب على المرء أن يتعلم كيف يقاوم، لكن المقاومة لا تعني أن نستسلم أبدًا لقدر معلوم، ولا تكون بالخضوع لمستقبل لا مفر منه. ألا يعني تعلّم المقاومة معرفة كيف تسأل نفسك؟

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

MINISTÉRIO DA CIDADANIA
Fundação BIBLIOTECA NACIONAL
MINISTÉRIO DA CIDADANIA
MINISTÉRIO DAS RELAÇÕES EXTERIORES
PÁTRIA AMADA BRASIL
GOVERNO FEDERAL

t.me/qurssan